الكتاب الاول

المغرب قبل الحماية

١) تقديم المغرب

٢) ماضى المغرب

٣) مساهمة العبقرية المغربية فى الحضارة الانسانية

٤) نظرة دبلوماسيـــة عن المغرب

٥) نظام المغرب قبل الحماية

obeikandi.com

تقديم المغرب

يحتل المغرب بأفريقيا الشمالية موقعا لا مثيل له فله واجهتان احداهما على المحيط الأطلسى والأخرى على البحر المتوسط وهكذا يتحكم المغرب فى مضيق جبل طارق الذى يعد من أهم طرق العالم • والمغرب أقرب شاطىء افريقى الى أوربا •

وسيصبح بفضل موقعه الجغرافى والستراتجى الممتاز صلة الوصل بين الشرق والغرب وبين أفريقيا وأوربا وأمريكا كما كان فى القرون الوسطى صلة الوصل بين الشرق وأروبا •

وكان القطر المغربى قبل الحماية يمتد الى ما وراء حدوده الحالية • ولكن فرنسا وأسبانيا اقتطعتا منه نواحى شاسعة كتوات وشنجيط وايفنى وغير ذلك • وكان من نتائج عقد الحماية أيضا تجزئة المغرب الى عدة مناطق :

أولا ـ منطقة تحت الحماية الفرنسية « عاصمتها الرباط »
ثانيا ـ منطقة تحت النفوذ الأسبانى « عاصمتها تطوان »
ثالثا ـ منطقة تحت الادارة الدولية « منطقة طنجة »
رابعا ـ منطقة استولت عليها أسبانيا فى أقصى الجنوب « يفنى وما اليها »

وسكان المغرب من الجنس الابيض وبعضهم شقر ذوو عيون زرقاء •

وهم وان كانوا من أصل بربرى فان امتزاجهم بالعرب عقب الفتح الاسلامى منذ القرن السابع وكذلك طرق معيشتهم المتشابهة ووحدة معتقداتهم كل ذلك لم يعد يسمح اليوم بأن تنسب القبائل المغربية الى عنصر معين •

وقد كتب العالم الجيولوجى الفرنسى دوطى فى ذلك ما يلى : « يمكن تقسيم المغرب الى ناطقين بالعربية وناطقين بالبربرية ورحالة ومقيمين وسكان سهول كما يمكن أن تميز من بينهم جماعات متشبعة قليلا أو كثيرا بالحضارة الاسلامية » •

ولكن من العبث تقسيم سكانه الى عرب وبربر اذ لا يستند ذلك على أى

دليل واضح من وجهة النظرية العلمية الحديثة وحتى من الوجهة «الانتغرافية» وبعبارة أخرى فان كلمات بربر وعرب وريفيين وشلوح وأمازيغ انما هى مجرد ألفاظ يستعملها الأجانب قصدا حسب هذه الناحية أو تلك وذلك للاشارة الى جنس ليس هو فى الحقيقة الا جنسا واحدا •

والاسم القومى الوحيد الذى يجب أن يطلق على هذا الجنس هو الجنس المغربى والمنتمون اليه مغاربة •

وكثيرا ما قسم الكتاب الأجانب مغرب ما قبل الحماية الى ما يسمونه ببلاد المخزن وبلاد « السيبة » • وبلاد المخزن فى نظرهم هو ذلك القسم من المغرب الذى يخضع لحكومة البلاد وادارتها ونفوذها على عكس بلاد « السيبة » التى هى فى عصيان وعداء يكاد يكون مستمرا مع الحكومة •

وقد أصاب الكاتب المسيو شوفل عند ما لاحظ أنه من الخطأ تصوير المغرب قبل الحماية على هذه الحالة فلم يكن هناك أبدا الا قطر واحد كله مغربى له حدود واضحة منذ القدم وما يسمونه ببلاد السيبة لم ينفصل قط عن مملكة السلطان ولم يخرج عن طاعته قانونيا وواقعيا وزيادة على ذلك فان بلاد السيبة المزعومة لم تعتبر أبدا بلاد المخزن بلادا عدوة كما أن بلاد المخزن لم تعامل بلاد السيبة كبلاد أجنبية بل كانتا معا جزئين من مملكة واحدة •

ولقد لخص المؤرخ الاجتماعى الكبير ابن خلدون الصفات المميزة للمغاربة فقال عنهم أنهم شعب قوى مهاب باسل كثير العدد كغيره من شعوب العالم الكبرى وانه تصدر عنهم أشياء خارقة للعادة مثيرة للاعجاب الى حد يستحيل معه انكار العناية العظمى التى خص الله بها هذه الأمة • ومن مميزاتهم أيضا تعلقهم الشديد بالحرية والاستقلال • فهم ينقلبون ما بين عشية أو ضحاها الى جنود يدافعون عن استقلالهم المهدد بقوة لا تقهر • فليس بشعب العبيد هذا الشعب الذى أمكنه طيلة عشرين قرنا أن يبقى هو هو صامدا أمام الفاتحين على اختلاف أنواعهم وأن يجد من بين أفراده رؤساء يسهرون على حريته •

وقد كانت اللغة العربية دائما هى اللغة الرسمية للبلاد منذ الفتح العربى وبجانبها عدة لهجات بربرية ولم تكن هذه اللهجات يوما من الايام لغة مدونة

وكان عدد سكان المغرب خلال عصور التاريخ يتغير بتغير خريطة حدوده السياسية ويمكن أن يقدر اليوم مجموعه باثنى عشر مليـــونا تقريبا منها فيما يخص المنطقة الواقعة تحت الحماية الفرنسية (حسب احصاء فاتح مارس ١٩٤٧)

٨٠٨٨٥٥١ من المسلمين
٢٠٣٨٣٩ من اليهـــــود
٣٢٤٩٩٧ من الأجانب الاروبيين

ويعد المغرب من أكبر البلدان استعدادا للانتـــاج فيما يخص المـــوارد الطبيعية وذلك بفضل لطف مناخه ووفرة مياهه وخصب ترابه وثروته المعدنية وتنوع أشكال نواحيه •

فلا عجب اذن أن تتجه أنظار الشعوب الى القطـــر المغربى فى مختلف العصور وان تصفه بجوهرة أفريقيا الشمالية ولذلك صار يطلق عنه فى بعض الأحيان اسم كاليفورنيا الافريقية •

وكانت أراضى الترس المغربى (التربة الســوداء) مشهـورة بخصـوبتها استغلت فى كل زمان وكان سكان البلاد قبيل الحماية يحرثون بانتظام ثلاثة أرباع الأراضى الترس •

وكثير من الحبوب كانت تصدر الى أروبا • قال ليوطى : « لما ذهبت أول مرة للمغرب سنة ١٩٠٨ تأثرت أشد التأثر من رؤية ممتلكات شاسعة الاطراف محروثة حراثة جيدة ومحدودة تحديدا واضحا تحيط ضيعا حقيقية • وكل هذا كان من عمل الاهالى فاندهشت من ذلك اندهاشا عميقا » •

وكان المغرب فى العصور القديمة يمد روما بكل ما تحتاجه من الحبوب فكان لها بمثابة مخازن •

وفى القرن السادس عشر كان يشترى رخام ايطاليـــا الثمين بوزنه من سكر سوس والى غاية القرن الثامن عشر كان المغـرب يصـدر كميات وافرة من السكر الخام الى مرسيليا وفلاندا ومن الثابت أن القطن فى القـــديم كان يزرع بكثرة فى المغرب وكانت الثياب القطنيـة قبل الحمـاية تنســج من

خيوط مصنوعة بالبلاد ، وكان صناع الحرير يجدون كذلك بداخل البلاد مايحتاجونه من حرير .

وفى المغرب غابات شاسعة لا فى الجبال الشاهقة فحسب « كالارز والبلوط والعرعار وغير ذلك » بل حتى فى السهول الموالية للمحيط الاطلسى « كالصنوبر والارجان وغير ذلك . »

وكذلك الماشية ، فهى كثيرة متنوعة والمرينوس الذى هو صنف من الغنم مشهور فى أوربا بجودة صوفه والذى كان المغرب يصدره اليها بكثرة بواسطة أسبانيا على عهد الدولة المرينية يرجع الى أصل مغربى واسمه مشتق من اسم تلك الدولة ، وكذلك الجلد المعروف فى أوربا بالماروكان فهو من المنتوجات المغربية الخالصة كما يدل عليه اسمه .

وأسماك المغرب كثيرة متنوعة ، ففيها أصناف المحيط الاطلسى والبحر المتوسط وشواطىء موريطانيا والسنغال . وهذا المزيج الغريب من أسماك بحار باردة وبحار حارة يجد فى الشواطىء المغربية العناصر الملائمة لنموه

ويعتبر صيد الحوت اليوم من الثروات الاساسية بمينائى اسفى وأجادير

وان الثروة الكامنة فى باطن الارض لاتقل أهمية وتنوعا عن ثروة وجه الارض ففى السهول والجبال عدد كثير من المناجم « كالفوسفاط والحديد والرصاص والزرنيخ والبترول والمنغنيز وغير ذلك » ... وفى القرن العاشر كان الزئبق والرصاص والحديد والذهب تصدر باستمرار من المغرب .

ويؤكد الجغرافى البكرى أنه يوجد بجبل قرب تازا ذهب خالص جيد وذكر ابن الوزان فى القرن السادس عشر أن الناس كانوا يستخرجون مقدارا كبيرا من الحديد بالاطلس وكان يباع فى وجهات مختلفة

وكانت التجارة بالمغرب قبل الحماية مزدهرة جارية مع أوربا وتركيا ومصر والسودان والسنغال وباقى أفريقيا الشمالية وكانت الصادرات باستثناء السجاجيد والبلاغى ـ الاحذية المغربية ـ تتكون من المحصولات الفلاحية

الخيل والجلود المدبوغة والماشية والمزروعات والزيت والمعادن والشمع وغير ذلك .. وكانت ثمان مراسى مفتوحة اذ ذاك للتجارة . وفى أوائل هذا القرن كانت قيمة المبادلات التجارية تقدر بستين مليونا من الفرنك (وذلك خلال سنة ١٩٠٧) نصفها للوارداب ونصفها للصادرات .

ومن الجدير بالذكر فى نهاية هذا العرض أن مغرب الامس كانت له صناعة نافقة ويكفى أن نورد فى هذا الصدد شهادة للمؤلف الفرنسى بيكس حيث قال فى بداية الحماية :

يصعب على الناس فى فرنسا أن يتصوروا المغرب كبلاد متمدنة بها مدن عظيمة ذات صناعات مزدهرة ولكن فى الحقيقة ان كانت القبائل الجبلية حافظت على حياتها البدوية فان المدن المهمة التى ازدهرت فيها مدنية راقية قد تجمعت فيها حركة صناعية مماثلة لما كان يوجد اذ ذاك بجميع البلاد قبل نمو الصناعة الميكانيكية .

« وكل مدينة من مدن المغرب أحرزت شهرة كبيرة فى بعض الصنائع ففاس مشهورة بثيابها الرفيعة ومطروزاتها وصياغتها الرقيقة وأوانيها الخزفية .

ومراكش وتطوان مشهورتان بأنواع الجلود والاسلحة والرباط وآسفى مشهورتان بالسجاجيد والاقمشة والاغطية .

وكان بفاس عاصمة المغرب خلال القرون الاخيرة حرف منظمة عد منها ابن الوزان الكثير ، وأشار بالخصوص الى ٥٢٠ دارا للنسج قائمة على هيئة قصور عظيمة محتوية على عدة طبقات وكان عدد النساجين يبلغ عشرين ألفا .

وفى فاس كذلك صناعة مزدهرة لدبغ الجلود واخراج مصنوعات مختلفة منها وهى وان لم تكن أهم أسواق الجلد فى المغرب فان بها من الدباغين عددا لا يقل عن ثلاثة آلاف .

يضاف الى هذه الصناعات ازدهار الفن المعمارى وبالاخص بفاس المشيدة على أبدع شكل حيث القصور الكثيرة المزخرفة أحسن الزخرف فيها عدد

وافر من البنائين والجباصة « والزلايجية » (صانعى الفسيفسا) والصباغين يوجد من بينهم ماهرون فى تلك الصنائع وفنانون حقيقيون .

وختم الكاتب بيكى هذا الكلام بقوله :

« ينبغى لنا اذن أن ندرك أننا هنا لسنا ببلاد متوحشة يجب أن يحدث فيها كل شىء بل نحن ببلاد فى حالة اجتماعية متأخرة ولا شك عن حالتنا ولكنها مماثلة لما مرت عليه جميع البلاد الاوربية بل من البلاد الاوربية من لاتبتعد كثيرا عن حالة المغرب الراهنة .

★★★★★

obeikandl.com

ماضى المغرب

ان الاسلام قد جعل من هذا المغرب الذى طالما أقضت مضاجعه وطمعت فيه شعوب مختلفة ـ بلادا كبرى ستصبح ابتداء من القرن التاسع الميلادى مركز امبراطورية شاسعة تمتد من ضفاف نهر الايبر بأسبانيا الى تخوم ليبيا ، وتقوم بدور عظيم فى تاريخ حوض المتوسط الغربى ، والمؤرخ النزيه لا يسعه الا أن يعترف بأن المغرب لم يستطع أن يكون لنفسه تاريخا وطنيا حقا الا بفضل الاسلام وتحت ظله • فالمغرب مدين لدولة الادارسة الذين هم أول أسرة اسلامية تربعت أريكة العرش المغربى ، بأول تنظيم ذاتى عرفته البلاد ، فكان ذلك مبدأ اتصاله الحقيقى بالحضارة العربية ، وما لبث سكان المغرب أن انضووا بكل اخلاص تحت راية العرب دعاة الدين الجديد ، واندمجوا فيهم ليكونوا جميعا منذ المائة الثامنة ميلادية أمة حرة مستقلة حتى عن بقية العالم الاسلامى وهذا الانقلاب قد تم تحت ظل نظام ملكى متصل الحلقات ضمن تخوم محدودة واضحة ، وبفضل جيش تمكن من رفع المغرب الى ذروة عظمته ، وأضفى عليه من الاهمية ما لم يكن له فى سابق عصور تاريخه •

ومما يؤسف له أن هذه الاهمية التى اكتسبها المغرب لم يحفل بها كثيرا معظم من أرخ له من الاوربيين ، وبالاخص منهم الفرنسيين ، الذين نصبوا أنفسهم للاشادة فى حرارة وحماس بالاحتلال الرومانى ، وحفزتهم عواطف عنصرية الى رسم صور قاتمة عن حياة المغاربة تحت ظل الاسلام ، وذلك لمحاولة ابراز ما جناه المغرب فى زعمهم من فوائد بعد سيطرة النفوذ الفرنسى عليه •

وهكذا فان ما سطره هؤلاء عن تاريخ المغرب يخلو غالبا من النزاهة التى هى أخص ميزات المؤرخ ، فأغلبهم يجهد نفسه لاظهار مغرب الامس فى صورة بلاد يعيش فيها خليط من القبائل الفوضوية ليس بها انسجام ، دائمة التمرد على السلطة المركزية والتطاحن فيما بينها فريسة للظلم والبؤس والاوبئة ، الى حد أن الانسان لا يتمالك عن أن يتساءل كيف أمكن لهذه الجماعات التعيسة أن

تغالب هذه المجاعة وتلك الامراض وبأية معجزة استطاع المغرب الاسلامى أن يحرز انتصارات ديبلوماسية وعسكرية رائعة وأن يبسط عمله التمدينى خارج الحدود المغربية .

ولسنا نرمى من وراء العرض المجمل الآتى الى ارتكاب نفس الغلط والغلو فى الاشادة بالماضى المغربى بحيث نجعل من تاريخه شبه أسطورة بديعة ، فان المغرب هو ككل من فرنسا وأسبانيا ، وكذلك باقى الامم قد عرف خلال تاريخه فترات اضطراب وأزمات حكومية وانهزامات عسكرية .

فاذا نحن حاولنا استعراض تاريخ الدول التى تعاقبت على هذه البلاد فما ذلك الا قياما منا ضد تلك الفكرة الشائعة التى تزعم أن المغرب عاش دائما « عصورا مظلمة » .

فقبيل انبساط الحماية كان المغرب حقا فى اضطراب ، فلم تكن فلاحة البادية بالمثابة التى كان ينبغى أن تكون .

ولكن يجب أن لا ننسى أن ذلك لم يكن سوى نتيجة ان لم نقل سببا للتدخل الاوربى فى هذه البلاد .

فهل يمكن لاحد ياترى أن ينكر ما كان من سطوة للامبراطوريات التى ازدهرت على التوالى خلال تاريخ المغرب ، فقد اعترف المريشال ليوطى قائلا :

« كلما ازددت اتصالا بالمغاربة وكلما طال مكثى فى هذه البلاد الا وازددت اقتناعا بعظمة هذه الامة ، فبينما لم نجد فى نواح أخرى من أفريقيا الشمالية سوى مجتمع يكاد يكون فى حكم العدم نتيجة الفوضى وعجز أولى الامر - اذا بنا قد وجدنا فى المغرب امبراطورية قائمة الذات ، وحضارة مزدهرة يانعة ، وذلك بفضل استمرار السلطة واستتبابها خلال الدول التى تعاقبت على الحكم ، وكذلك بفضل استمرار المؤسسات القومية الجوهرية التى بقيت قائمة رغم الانقلابات » .

فسنعمل اذن فى العرض الآتى على اعادة المياه الى مجاريها ، وانصاف الاحداث الكبرى التى تخللت تاريخ المغرب الى ٣٠ مارس ١٩١٢ وهو اليوم الذى فرضت فيه فرنسا حمايتها على هذه البلاد .

المغرب قبل الاسلام

ان المراكز التى أسسها الفينيقيون والقرطاجنيون على سواحل المحيط الاطلسى وحدها منذ نحو ثلاثة آلاف من السنين لم يكن لها ـ على ما يظهر ـ تأثير سياسى داخل البلاد ، كما انها لم تترك آثارا بليغة فى سكان المغرب على أن السيطرتين الفينيقية والقرطاجنية قد نتج عنهما الحيلولة دون وقوع أى اتصال بين المغاربة وبين الافريقيين الذين أمكن لحضارتهم أن تقلب العالم ، غير أن المكان الذى يحتله المغرب فى الاساطير اليونانية يشهد بما تمتعت به هذه البلاد عند الاغريقيين من مكانة سامية ، فقد كان هؤلاء يعتبرونه جنة تستوطنها كائنات تسمو عن سلالة البشر ومن ذلك تصويرهم لجبال الاطلس وهى تحمل على كواهلها أعمدة السماء ، وكذلك ما يتصل من أساطير بحديقة « هسبريد » الغناء ذات تفاح من ذهب وبارض « اتلانطيد » التى خلد افلاطون ذكرها فى احدى رسائله .

وما كاد يبدأ تقهقر القرطاجنيين حتى توحدت البلاد المغربية واستعاد ملوكها نفوذهم بسرعة ،فاستولى أحدهم على المراكز المنتشرة على الساحل وجعل من طنجة عاصمته .

أما الاستعمار الرومانى فانه كان محنة كبرى للبلاد ، غير أن رومة كان يلذ لها ـ كما يلذ اليوم للمستعمرين ـ أن تستغنى بمأثرها فى هذه البلاد ، زاعمة أنها لم تحتل البلاد عن طمع ، وانما خضوعا منها لمقتضيات عسكرية ، ومع ذلك فان خصب التراب المغربى كان ولا شك الدافع الاساسى لهذا الاحتلال ، وليس من العبث قولهم بأن المغرب كان منجم حبوب رومة .

وبالرغم عما بذلته روما من جهود لم تستطع أن تبسط سيطرتها الا على منطقة طنجة التى لم تكن تتجاوز وادى أبى رقراق ولم تتمكن الجالية الرومانية أن تستقر بعدد كبير من أفرادها الا فى سبتة وطنجة والارباض المجاورة لمدينة وليلى . أما فى باقى البلاد فان رومة لم تكن لها أية سلطة ولا حتى مجرد نفوذ

على أى منطقة لم تكن خاضعة لولاة رومانيين • كما كان الشأن فى أفريقيا الشمالية ، وانما كان يشرف عليها وكيل أو مندوب عن روما ، فلم تكن القبائل تخضع مباشرة لحكم موظفين رومانيين ، بل كان يحكمها رؤساء يختارهم أعيان البلاد •

غير أن السيطرة الرومانية على شمال المغرب كانت مع ذلك محنة كبرى لاستقلال البلاد ، ذلك الاستقلال الذى يعرف المغاربة كيف يدافعون عنه ، وذلك باظهارهم خلال العصور ما يمتازون به من خصال حربية ، ولكن تلك السيطرة لم تتم الا بسبب خيانة الملك بوخوس الذى سلم الى الرومانيين خصمهم الالد يوغرطا فلم يفلت بوخوس هذا من المصير المحتوم الذى قدر لخونة الوطن حيث دمر بيديه ما كان فيه من استقلال •

واذا كانت روما لم تستطع أن تستمر مدة طويلة فى المغرب فما ذلك الا لسببين :

أولا ـ أن امبراطورية الرومان كانت تحمل بين جنبيها جراثيم الانهيار ، فقد أسست هذه الامبراطورية بالقوة ولم يكن يتأتى لها أن تحفظ نفسها الا بالقوة •

ثانيا ـ ان المغاربة نجحوا فى الاحتفاظ باستقلالهم فى معظم أنحاء البلاد بفضل ما امتازوا به من مرونة ظاهرة تتوارى تحتها روح مقاومة جبارة للاجنبى فاستغلوا استقلالهم الجزىء للقضاء على احتلال الجزء الباقى ، واذا كان مغاربة الشمال قد ظلوا خاضعين للرومان أثناء تلك المدة ، فان هؤلاء لم يستطيعوا ادماجهم ولا حتى كسب حيادهم ، فلم يكن ذلك السلام الظاهرى ليسود الا بالقوة بين الرومانى الذى يفرض سيطرته ويغتصب الاراضى ، وبين المغربى الصامد التى انتزعت منه أراضيه ، ولكن بمجرد ما تضعضعت هذه القوة فى منتصف القرن الثالث الميلادى أصبحت ثورات الشعب المغربى موصولة الحلقات بعد أن كانت تشب بين الحين والحين ، ويمكن القول بأن تاريخ أفريقيا الرومانية ليس سوى تاريخ ثورات شعوب عيل صبرها ، وكان المغاربة كلما احتدمت الحرب بين روما وأعدائها ينضمون تارة لفئة ، وتارة لفئة أخرى رغبة فى التمرن

على الكفاح واضعاف السلطة الرومانية ، وقد أسفرت المسيحية عن نتيجة غريبة وهى أنها أعطت لسكان البلاد فرصة للثورة ، فان حركة الخوارج الذين تزعمهم الاسقف « ضونات » قد تمخضت عن مقاومة المغاربة وازدوجت هذه الحركة بحركة اجتماعية قام بها سكان البادية الذين أفقرهم الاحتلال الرومانى ، فكان من هذه المقاومة المضاعفة أن خضدت نهائيا شوكة نظام الرومان العسكرى .

غير أن هذا الكفاح الشديد المتواصل الذى قام به المغرب لطرد الرومان قد أنهك قواه الامر الذى ساعد الوندال على النزول بترابه دون أن يصطدموا بمقاومة ، وبما أن الوندال من السلالة الآرية فقد أحسن استقبالهم الاهالى من الخوارج أتباع « ضونات » الذين اعتبروهم بمثابة محررين، ولكن من حسن الحظ أنهم لم يمروا بالمغرب الا مرا لطيفا فعاد أصحاب البلاد بعدهم الى مسك زمامها فانهارت تحت الانقاض سيطرة روما على أفريقيا وانبثق المغرب من جديد منذ القرن الرابع الميلادى فاستعاد حياته الخاصة ، أى استقلاله الوطنى الكامل .

ومن ذلك يتجلى أن تاريخ الشعب المغربى فى العصور القديمة جدير بالاهتمام ، فقد هزمت جيوشه قرطاجة وروما ، وهاتان الدولتان القويتان الغنيتان لا تحتلان سوى حيز وجيز فى التاريخ المغربى لانه لم يتح لهما قط احتلال قلب البلاد ، وبينما اندرست هاتان الدولتان من المغرب دون أن تتركا أى أثر فان العرب استطاعوا على عكس ذلك أن يتبوأوا مكانة تعظم مع الايام .

الفتح الاسلامى

ان فتح العرب للمغرب قد حقق فى النهاية ما لم يستطع القيام به خلال قرون طويلة الفنيقيون ولا القرطاجنيون ولا حتى الرومانيون لان العرب تمكنوا من ادخال المغاربة بسرعة فى حظيرة الاسلام وادماجهم تدريجيا الى حد امتزاج السلالتين ، والى حد أنه أصبح من المتعذر تحقيق أصل القبائل فى كثير من النواحى •

فحوالى سنة ٦٨٢ أى بعد مرور نصف قرن على وفاة الرسول عليه السلام توغل عقبة بن نافع ، مؤسس مدينة القيروان بالجيوش الاسلامية داخل التراب المغربى وقضى على ما بقى من آثار دولة بيزانس التى استقرت للمرة الثانية فى المغرب ، كما قضى على كسيلة والكاهنة اللذين انبريا للمقاومة العظيمة • ولكن نجاح الفتح العربى لم يتم الا فى أوائل القرن الثامن الميلادى ، بفضل حملة موسى بن نصير الذى يعتبر الفاتح العربى الحقيقى للمغرب •

وفى عام ٧٠٩ كان المغرب قد ألحق سياسيا بامبراطورية الخلفاء الشرقية • وبعد ذلك بأقل من سنتين ، اجتاز جيش هائل تحت قيادة بربرى مسلم ، هو طارق بن زياد ، المضيق ونزل أسفل الجبل الذى لا يزال يحمل اسمه ، وهو جبل طارق ، وقد كان البرابرة يؤلفون معظم الجيوش التى حاربت فى أسبانيا، ووصلت الى جنوب فرنسا عام ٧٣٢ •

وهكذا ساهم المغرب فى المعارك طوال مدة فتح أسبانيا ، أكثر من أى قطر اسلامى آخر •

وينبغى أن نفرق بين القبائل العربية الوافرة العدد التى اكتسحت أفريقيا الشمالية خلال القرن الحادى عشر المسيحى ، وبين الفتح العربى الذى تم بعد فى القرن السابع • ولم يكن سوى كتائب من الفرسان اخترقت امبلاد ، وخلفت وراءها أفرادا من العرب المسلمين لم يلبثوا أن اكتسبوا نفوذا عظيما بالرغم عن قلة عددهم •

ولا يمكننا أن نجد سر هذه السرعة المدهشة التى تم بها الفتح واعتناق المغاربة للاسلام الا فى مزايا الدين الجديد رمز الوحدة والتحرير ، فبقدر ما كان عمل

رومة بالمغرب انانيا واهيا ، حيث لم تكن تهتم الا باستغلال خيرات البلاد بقدر ما كان الاسلام ـ كما يقول تيربى : « يتلاءم تلاؤما دقيقا مع مطامح شعب يهيم بالحرية قبل كل شيء ، وذلك نظرا لما يتسم به هذا الدين من تسامح فى روحه وبساطة فى معتقداته وصرامة فى مبادئه ، وديموقراطية فى روحه ، بل يمكن القول بأن هناك تجانسا بين النفسية البربرية وجوهر الاسلام بلغ من العمق مبلغا وجد العرب بفضله فى المسلمين الافارقة حماة لهذا الدين لا تلين لهم قناة، ويجب أن نضيف لهذه العوامل المختلفة أن سلطة الخلفاء الذين كانوا يشرفون على المغرب من بعيد لم تكن لتضايق المغاربة على ما يظهر ، فان الخلفاء لم يكونوا يطالبون بغير اعتناق الاسلام بحيث يصبح المغاربة بعد ذلك مساوين للعرب فى جميع الميادين ، وفى هذا تفسير لذلك الانقلاب العجيب الذى جعل مصير المغرب يرتبط بمصير الاسلام ارتباطا لا يقبل الانفصام ، فغدا المغرب والاسلام خلال التاريخ أخوين فى السراء والضراء ، وان رسوخ قدم الاسلام فى المغرب لم يصحبه أى اضطهاد لاقليات بقيت تدين بالمسيحية واليهودية بكامل الحرية .

وهكذا فان المغرب بعد أن دخل فى حضيرة الاسلام تعاقبت عليه دول اسلامية عظمى .

دولة الادارسة

بدأ صرح الامبراطورية العربية يتقوض باستيلاء العباسيين على الخلافة فى القرن الثامن المسيحى ، ففى أسبانيا انفصل المسلمون عن سلطة خليفة بغداد ، والتفوا حول الخليفة الاموى فى قرطبة ، وفى المغرب ازدوجت هذه الحركة الاستقلالية بحركة الخوارج الآتية من الشرق . غير أن هذه الحركات حوربت بصرامة رغم تمكنها من تأسيس دولة سجلماسة وراء جبال الاطلس ، فلم تلبث دولة الادارسة أن رفعت لواء السنة ، وأعادت للبلاد وحدتها .

نزل المولى ادريس الذى نجا من اضطهاد الخليفة العباسى فى طنجة عام ٧٨٨ واستقر قرب اطلال مدينة وليلى الرومانية ، وما لبث أن فتح لانصاره ميادين

جديدة للغزو وراء نهر أبى رقراق فى نواح لم تستطع قط التوغل فيها جيوش الرومان ، وكان بها قبائل مسيحية ويهودية ووثنية هزمها بسهولة فدخلت فى حظيرة الاسلام .

فقلق الخليفة هارون الرشيد وغار من هذا الانتصار الذى أحرزه المولى ادريس فدس له من يقتله عام ٧٩٣ وخلفه نجله المولى ادريس الثانى الذى ولد له من بربرية فأصبح أميرا غير منازع على المغرب أجمع وناحية تلمسان وكان أول ما اهتم به وهو فى شبابه تأسيس عاصمة لمملكته ، وهكذا أسست عام ٨٠٨ مدينة فاس التى استمدت لباب حضارتها من قرطبة والقيروان ،وهما محط رحال المدنية الاسلامية فى المغرب ، وقد ورد من هذين العاصمتين مهاجرون للاستيطان بالمدينة المغربية الجديدة وعند ما بنى جامع القريين أصبحت مدينة فاس أم القرى يؤمها العلماء والادباء فيستقبلون فيها بكل حفاوة ، وظلت هذه الجامعة التى هى أقدم جامعة فى العالم خلال القرون التالية مركزا من أهم المراكز الدينية والفكرية فى العالم الاسلامى ، لهذا فان الادارسة هم أول من أدخل الحضارة الاسلامية الى المغرب وبتأسيسهم مدينة فاس كانت لهم المكانة السامية فى جميع عصور تاريخ المغرب ، فمن فاس أشع على البلاد نور الفكر الاسلامى واللغة العربية .

وقد احتفظ الاولون من خلفاء المولى ادريس الثانى للمغرب بعظمته الى منتصف القرن الحادى عشر ، ثم انهارت قواهم فيما شب بعد من حروب داخلية .

*****

المرابطون (١٠٥٣ ـ ١١٤٧)

وبينما كان المغرب يقاسى خلال القرن الحادى عشر أزمة ما لبث أن استعصى أمرها بغزوات العرب الهلاليين وهم قبائل رحل انحدروا من بلاد الصعيد المصرية ، انبثقت دولة جديدة بسطت نفوذها وثقافتها نحو الشرق واستأنفت سياسة الفتح الاسلامى للبلاد الاسبانية .

وقد انبثقت هذه الدولة من وسط قبيلة قوية من قبائل الصحراء وكان مذهبها الدينى يرتكز على نوع من سلفية صارمة والقضاء على كل ما من شأنه أن يؤدى الى حياة الميع والمجون ومن هذه القبيلة برز يوسف بن تاشفين

العبقرى الذى كون من رجال الصحراء والسهول والجبال قوة مؤتلفة منتظمة

وفى عام ١٠٦٢ أسس يوسف بن تاشفين مدينة مراكش وجعل منها قاعدة عسكرية ومن هذه العاصمة صار يوجه حملاته التى بلغت عاصمة الجزائر ولكن ممالك الطوائف بالاندلس استغاثت به بعد استيلاء الفونسو السادس ملك قشتالة على مدينة طليطلة ، فلم يسع ابن تاشفين الا العودة الى المغرب من حيث عبر الى الاندلس على رأس جنوده وأحرز النصر الباهر فى واقعة الزلاقة الشهيرة عام ١٠٨٦ ، ولكن بعد ما شعر بضعف أمراء الاندلس وانقسامهم وعجزهم من أجل ذلك عن مقاومة الاسبان بجدوى ألحق أماراتهم بمملكته ثم دخل الى فاس فجعل منها عاصمة ملكه وغير معالمها وشيد فيها عدة بنايات وقد وصل المغرب فى عهده الى حضارة سامية وتمتع برفاهية وازدهار عظيمين ، وفى عام ١١٠٦ مات يوسف وقد أنهكه الهرم بعد أن كاد ينيف على المائة فخلف مملكة تمتد من السنغال الى نهر الايبر ومن المحيط الاطلسى الى الجزائر .

وقد تأثر ولده على الذى خلفه على أريكة العرش بالحضارة المغربية الاسبانية ، واحتفى به كما احتفى بأمراء الاندلس الذين ورث امارتهم كتاب وشعراء واشتغل له أرباب الصنائع والفنون فأسس فى فاس ومراكش وتلمسان عمارات تعد من بدائع الفن الاسلامى وحوالى عام ١١١٩ بلغت دولة المرابطين ذروتها حيث انبسط نفوذ أمراء فاس على جزر البليار بعد أن اعترف بسيادتهم على أسبانيا والمغرب .

غير أن دولة المرابطين لم تعمر طويلا لان مذهب الدولة الدينى الذى نشره مؤسسة وحماه لم يتلاءم مع ظروف الحياة الجديدة .

*****

الموحدون

وعلى عكس المرابطين الرحل الواردين من الصحراء فان الموحدين كانوا قبائل قارة انحدرت من الاطلس ومؤسس الحركة الموحدية هو المصلح الدينى المهدى بن تومرت .

وكان من علماء الكلام ثورى النزعة مغربى الاصل ولكنه تعلم فى الشرق

فبعدما زار قرطبة التى كانت اذ ذاك معدن العلوم استقر فى أوائل القرن الثانى عشر فى شتى المراكز الثقافية بالشرق حيث تشبع بالروح الصوفية وعاد بعد ذلك الى المغرب حيث انصرف لتلقين نظرية ترتكز على التوحيد والزهد وطهارة الاخلاق وما لبثت القبائل التى أنضمت الى هذه الحركة ان كونت قادة جيش أصبح دعامة الدولة الجديدة .

وعندما مات ابن تومرت عام ١١٣٠ خلفه تلميذه عبد المؤمن الذى يمكن اعتباره من أبرز شخصيات المغرب لجمعه بين الشجاعة والذكاء والعزم والرصانة العقلية ففى بضع سنوات أصبح عبد المؤمن أمير المملكة جمعاء بدون منازع وانتظم جيشه فشرع فى فتح اسبانيا قبل أن يتم استيلاؤه على كافة أنحاء المغرب ثم ملك قرطبة وغرناطة وأخضع بعد ذلك المغرب الاوسط واستولى على أفريقية (تونس) وبرقة وطرد النورمانديين من البلاد (عام ١١٥٩) .

ولهذا الامير مآثر جليلة فقد كان نظاميا عادلا بسط فى مجموع أنحاء المملكة أمنا ترعرعت فى ظله الحضارة المغربية مطبوعة بميسم جديد من القوة وقد وضع نظاما جبائيا وأمر بتكسير أفريقيا الشمالية الى فراسخ وأميال فشبه عن حق بأعاظم ملوك التاريخ .

وللمرة الاولى أصبح المغرب كله يؤلف دولة واحدة من الاندلس الى برقة وكان المغرب محور هذا المجموع ومركزه الجغرافى يتكون من القبائل المغربية قادته وحماته .

وقد بلغت دولة الموحدين ذروة مجدها فى عهد المنصور (حفيد عبد المؤمن) الشهير بانتصاره الباهر على الاسبان فى غزوة الاراك (عام ١١٩٥ م) وباستتباب الامن والنظام اللذين أقرهما الموحدون اتسمت الحضارة الاندلسية بمظهر ناصع فشجعت الورش البحرية والفلاحة وازدهرت المصانع فكان لهذا النشاط أثره فى المغرب حيث اشتهرت سبتة بصناعة الورق وأصبحت معامل فاس تنتج كذلك كميات وفيرة من الورق ولم يكن المنصور قائدا عسكريا فحسب بل كان معماريا عظيما يشيد الصروح والقصور ولا تزال مآثره الرائعة كالرباط والقصر ومنارة أشبيلة وكتبية مراكش ومئذنة

حسان شاهدة بسعة وعظمة الاعمال الحضارية التى تصورتها وأبدعتها عبقرية هذا الرجل •

ففى عهده صار الاسطول الموحدى من أهم أساطيل العصر بل أصبح قابضا على زمام مجموع حوض المتوسط ولم يسبق للمغرب خلال التاريخ أن كان له فى أقطار البحر المتوسط مثل هذا الاشعاع ومثل تلك القوة حيث أمسى جميع أمراء الشرق يخطبون وده ويسعون فى محالفته •

وقد عرفت البلاد كلها فى عهد الموحدين حياة ملؤها الرفاهية والازدهار اذ كان جميع أمراء الموحدين معماريين قد رقت أذواقهم ونمت فيهم حاسة الجمال وأحسن مثال لذلك تأسيسهم لمدينةالرباط فالمغاربة كما لاحظ مؤرخون أجانب قادرون لا على تأسيس المدن فحسب بل حتى على انجاز ما تحتاجه هذه المدن من اشغال عمومية كبرى •

ولم تكن أفريقيا الشمالية تتعامل فى عهد الموحدين مع اسبانيا وحدها بل كانت تونس وبجاية وقسطينة ووهران وتلمسان وسبتة تتبادل بضائعها مع بيزا وجنوة والبندقية ومرسيليا وفى عهد الموحدين كذلك كان المسلمون أول من نظم أساليبهم التجارية حسب مقتضيات التبادل بين الدول وقد حسنوا هذه الاساليب فاستمد منها المسيحيون استمدادا واسع النطاق •

وقد زادت الثقافة الاندلسية المغربية أيضا فى سمعة الموحدين بكافة أنحاء العالم الاسلامى وازدان البلاط الموحدى بابن طفيل وابن رشد اللذين كانا أعظم فلاسفة العرب فى القرن الثانى عشر الميلادى وقد كان لهما أثر بليغ فى فلسفة القرون الوسطى ما لبث أن طبع المسيحية نفسها •

وأخيرا ينبغى أن نلاحظ أن سعة نطاق هذه الامبراطورية الموحدية الشاسعة كان أهم أسباب ضعفها فقد بدأت المقاطعات النائية تتحلل من نفوذ أمراء هلهلت معنويتهم حياة البذخ والمرح وكان عليهم أن يفسحوا المجال لدولة جديدة •

*****

المرينيون

يرجع أصل المرينيين الى المغرب الشرقى وقد امتدت دولتهم من القرن

الثالث عشر الى القرن السادس عشر ولم تهدف هـــذه الدولة كسابقتها الى اصلاح دينى أو تقويم خلقى وقد شمل حكم المرينيين علاوة على المغرب ناحية تلمسان وامتد نفوذهم الى أفريقية (تونس) واجتازوا هم أيضـــا الى عدوة الاندلس فأحرزوا النصر على الاسبان فى غزوة شـهيرة (١٢٧٥ م) دمروا فيها الاسطول المسيحى •

ويتلخص من كل ما خلفه لنا المؤرخون وبالاخص ابن الوزان أن المغرب عاش فى رفاهيـــة كبرى طوال قرنين اثنين تحت ظل بنى مرين فقد كانت المدارس والقرى عديدة غنية سواء فى السهول المحاذية للمحيط الاطلسى أم فى ناحية فاس أم فى هضاب الاطلس ونجوده وكانت أقصى أنحاء الجبل تنعم بتمام الطمأنينة والوداعة وفى العهد المرينى أصبحت فاس مدينة كبرى تتجاوز عظمتها بكثير ما يتخيـله الاجانب عن ماضى المغرب وكانت ناحيـــة الشاوية بالخصوص زهرة جميع النواحى الاخرى لانها كانت تحتوى وحـــدها على أربعين مدينة وثلثمائة قصر يسكنه أهل القبائل المختلفة •

والمغرب مدين لهذه الدولة بتأسيس فاس الجديد وتطوان وبنـاء مدارس ومعاهد وابداع مآثر الفن المغربى التى تنافس أجمل آثار الاندلس من حيث الروعة والانسجام •

وقد انهارت قوات المرينيين مع الاسف فى حروبهم المتواصـــلة مع أمراء تلمسان وتونس وبذلك استطاع الاسبان أن يكتسحوا الاندلس باحتـــلال غرناطة عام ١٤٩٢ وهى آخر مملكة اسلامية فى أسبانيا استطاعت أن تحتفظ بوجودها خلال ما يقرب من قرنين واحتل البرتغاليون والاسبان كذلك عدة مراكز من الساحل المغربى •

*****

وهناك من ينتقد على الدول الثلاث السالفة توسعها خارج حدودها الجغرافية وسلوكها بذلك سياسة المغامرات والطموح للعظمة الامر الذى استنفد موارد وطنية هائلة دون أن تعود من ذلك على البلاد أية فائدة مهمة ويلوح أن هذا الحكم قاس جدا لان الوقائع التاريخية تشهد بأن المغرب كان من شأنه أن يفقد حياته لو وقف موقف المتفرج من زحف جيوش الرمانديين فى الشرق والملوك

الكاثوليك في الشمال وهي تشهد أيضا بأن أسبانيا كانت تذكيها مطامح أخرى حيث انها قامت عندما ضعف المغرب بعد ذلك بحملة على الساحل الافريقي أسفرت عن أسوأ المصاعب للحكومة المغربية •

ومهما يكن فان ما قامت به هذه الدول من جهود لبسط الامن والحضارة في كل من اسبانيا وأفريقيا الشمالية لا يزال للمغرب مفخرة خالدة •

*****

السعديون

وابتداء من القرن السادس عشر اضطرت الحوادث الخارجية المغرب الى الانطواء داخل حدوده وقد حارب المغاربة هذه المرة فوق ترابهم لان عوامل جديدة أجبرتهم على هذا الانطواء •

وهذه العوامل هي :

١ ـ وصية ايزابيلا الكاثوليكية ملكة قشتالة التي عبرت عن فكرة الانتقام وأمرت بغزو أفريقيا ومحاربة الخارجين عن ملة المسيح •

٢ ـ المعاهدة الاسبانية البرتغالية المبرمة عام ١٤٩٤ تحت رعاية البابا والتي حددت الخط الفاصل بين الغزوات التي تقوم بها كل من البلدين في المستقبل وخولت للبرتغاليين معظم السواحل المغربية •

٣ ـ غزو الاتراك للمقاطعات التونسية والجزائرية •

والحق ان هذا الانطواء لا يرجع الى بغض الاجانب كما يدعيه بعض الكتاب الاجانب لان الميزة التي طبعت الدول التي تعاقبت على المغرب الى هذا العهد هي التسامح أزاء المسيحيين فالبرغم عن النجاح الخارق الذي أحرزه الاسلام في المغرب ظل أولئك الذين احتفظوا بديانتهم المسيحية في مأمن من كل اضطهاد أو مطاردة وفي القرن الثالث عشر أسست أسقفية بفاس ثم نقلت الى مراكش وكان المسيحيون متوافرين اذ ذاك بالمغرب حيث أن المرابطين والموحدين أدخلوا في جيوشهم كثيرا من الجنود المسيحيين الذين كانوا يؤدون طقوسهم بكل حرية مرفوقين بقساوستهم وكانوا يعيشون جميعا في أمن وأمان وكان سلاطين المغرب يتبادلون مع الاقطار الاوربية مكاتيب حول الكنيسة بالبلاد واستمرت العلائق الطيبة مع المسيحيين في العهد المريني ولم

يتفاقم الخلاف بين المسلمين والمسيحيين الا بعد شبوب الحروب الاسبانية •

أما القرصنة فمن المفيد أن نشير الى أنها لم تكن قاصرة على المغاربة وان المسيحيين هم الذين أعطوا المثل الاول فى ذلك فان القراصنة المسيحيين الذين كانوا بسردينيا وكورسيكا وصقلية ومالطة لم ينقطعوا عن مطاردة السفن المغربية والافريقية عموما والاغارة على الساحل ويروى المؤرخون الاوربيون أنفسهم أن الامم المسيحية كانت تحاول بالساحل المغربى أن تقوم باغارات يصعب تبريرها •

أما العلائق التجارية مع الدول المسيحية وكان الطابع الذى ما فتىء يسود هذه العلائق هو الوداد وكانت بيزا ومرسيليا وجمهورية جنوة ومقاطعة بروفانس تعقد مع المغرب صفقات كما كانت لميورقة وبرشلونة وليفورن علائق تجارية مع المغرب ولكن هذا العصر الزاهر انتهى بغزو البرتغاليين والاسبان لسواحل المغرب فى القرن السادس عشر على الخصوص ذلك أن البرتغال التى كانت تسعى فى توسيع نطاق تجارتها البحرية قد أقامت فى طريق الهند سلسلة من المراكز واحتلت عدة موانىء مغربية وأسست كلا من الجديدة وأجادير ولم يكن البرتغاليون يختلفون عن سلفهم الرومان حيث كان همهم الوحيد هو استغلال البلاد فقد استخلصوا من المغرب موارد هائلة ولم يتحرجوا عن نهب المقاطعات ولم يتردد ملك البرتغال الذى حمل منذ سنة ١٤٧٥ لقب (فادى الاسرى) فى اختطاف المغاربة وبيعهم بنفسه كعبيد فى أشبونة •

وقد قام الاسبان من جهتهم فى الساحل المغربى بحرب صليبية فاستولوا على مراكز وانبعاث الاسلام هو الذى أنقذ المغرب من هذا الغزو المزدوج اذ بينما تجلى هذا الانبعاث فى باقى أفريقيا الشمالية فى انسباط سيطرة الاتراك اذا به ينتهى فى المغرب على العكس من ذلك بظهور دولة السعديين فقد تغلغل ما نادوا به من حرارة دينية فى طبقات الامة وامتزج بوطنية غريزية ولم يتردد السلطان السعدى محمد الشيخ فى قبول تحالف مع اسبانيا وقد تمكن المغرب بفضل حياد اسبانا واستئناف علائقه الطيبة مع انجلترا من اشهار الحرب على البرتغال وبذلك تم النصر للمغرب فى معركة وادى المخازن قرب القصر (عام ١٥٧٨) حيث قضى القضاء المبرم على الجيش البرتغالى وحيث صرع

الدون سبستيان ملك البرتغال وقد أبرزت هذه المعركة الكبرى افلاس الحملات الصليبية التى كانت البرتغال تقوم بها ضد المغرب وقد فقدت تلك البلاد استقلالها خلال أزيد من نصف قرن وألحقت بأسبانيا •

وهكذا استطاع المغرب أن يستعيد سمعته ويعزز استقلاله ووحدته فهبت البلاطات الاوربية التى أثر فيها ذلك الانتصار تأثيرا بليغا لتعقد روابط وعلاقات مع البلاط المغربى وتحظى بمحالفته فمن ذلك ان انجلترا عرضت عليه حلفا ضد الاسبان بل اقترحت عليه غزو الهند الاسبانية مع الاشتراك فى تحمل مصاريف الغزو •

وخطبت اسبانيا من جهتها محالفة المغرب ضد الطامحين فى عرش البرتغال بل وأعادت الى المغرب مدينة أصيلا فى مقابل تخلى سلطان المغرب عن مساعدة هؤلاء الطامعين فى الملك •

وقصد تلافى الخطر التركى توجهت سفارة مغربية الى الاستانة ونجحت فى اقرار علائق حسن الجوار • وبفضل استقرار هذا السلام تمكن المنصور السعدى من فتح السودان ثم نشر فى المغرب بنود الازدهار وأقام فى مدينة مراكش قصر البديع الجامع بين السعة والروعة وقد جلب السلطان المرمر من ايطاليا وأدى ثمنه وزنا يوزن بسكر سوس وقد اشتهر المنصور كذلك بجيشه العتيد الذى نظمه على غرار الجيش التركى •

وقد أعجب الامراء المسيحيين بهذا العاهل العظيم ، وبدأوا يعتبرون الايالة الشريفة كدولة يجب أن يحسب لها حسابها ، ويرسلون سفنهم لمراسيها ، كما يبعثون بسفرائهم لمراكش ويحاولون الحصول على قروض من هذا الملك الثرى الذى كان يلقب بالذهبى ، وفى عهد المنصور هذا عاش المغرب فى طمأنينة ورفاهية ومجد •

أما فى تاريخ الفن الاسلامى فان عصر السعديين يعتبر عصر نهضة حقة ، وانبعاث الزخرفية المعمارية •

*****

العلويون

وفى القرنين السابع والثامن عشر عاش المغرب فترة هادئة نسبيا لان الدول

الاوربية كانت قد انصرفت اذ ذاك فى مجموعها الى الحروب التى شبت فى أوربا بسبب الحملة الاصلاحية الدينية وكذلك حروب الثورة وقد ساعدت هذه الحالة على اقرار وحدة البلاد السياسية من جديد على يد الملوك العلويين الذين ما زالوا يتربعون أريكة العرش المغربى الى اليوم والسلطان المولى اسماعيل هو الذى وطد دعائم هذه الدولة ، فقد كان الى جانب نشاطه العمرانى تقيا متبصرا ، وكانت تذكيه عزيمة لا تفل ، وشجاعة كبرى ، ومناعة جسمانية احتفظ بها خلال عهده الطويل حيث استمر جالسا على العرش أزيد من خمس وخمسين عاما .

وعند ما تولى المولى اسماعيل الملك كانت بعض الموانى المغربية فى قبضة الاوربيين فألف لمواجهة هذه الحالة قوة عسكرية مهمة تتركب من العبيد الذين يؤدون الخدمة العسكرية على الدوام ، والاستمرار فى مقابل أراض ومنافع خولها الامير اياهم ، وقد بنى ستة وسبعين معقلا شحنها بالحاميات ، وذلك فى جميع النقط الاستراتيجية فى مملكته للاشراف على الطرق والممرات كما يجب ، وقد نهج المولى اسماعيل سياسة وطنية بفضل هذا الجهاز العسكرى ، وحارب بكل قوة الاجانب المحتلين للسواحل ، وانتزع طنجة من يد الانجليز ، كما جرد الاسبان من غالب ما كانوا يمتلكونه .

وفى أوائل القرن السابع عشر بلغ المولى اسماعيل ذروة القوة والمجد ، وقد أسس مدينة مكناس بأبوابها الاثرية وقصورها الخمسين وجعل منها عاصمة مملكته .

كان ملكا عظيما وكان يأبى الا أن يعامل بما هو جدير بهذه العظمة ، وقد كتب الى ملك فرنسا لويس الرابع عشر ، الذى كانت معاملته اياه خالية من أبسط أساليب الرعاية واللياقة ، ليطلب منه أن يوجه اليه «سفراء وسراة من طبقة أعلى من طبقة التجار العاديين » ، وقد أوفد هو الى لويس الرابع عشر سفيرا فى شخص أحد كبار سراة المغرب ، ويقال ان هذا السفير خطب لسيده أميرة كونتى وقد علق كاتب فرنسى على هذه الخطبة بقوله : « لقد تندر الناس كثيرا فى فرنسا بهذه الخطبة ، ولكن ربما كانوا مخطئين ، فقد كان الفرنسيون يجهلون اذ ذاك كل شىء عن الحضارة العربية ، وكانوا يتصورون البلاط المغربى بدون شك على غير ما كان عليه ، ومع ذلك فليس من المحقق أن المقاطعات الفرنسية كانت

كلها في ذلك العهد أكثر حضارة ومدنية من مملكة المولى اسماعيل » .

وبفضل القوة التي منحها المولى اسماعيل في كيان المغرب أمكن لهذه البلاد أن تظهر بمظهر الدولة فيما بعد بالرغم من الظروف العصيبة التي اجتازتها ، وقد كان أحد خلفه وهو سيدي محمد الثالث ، قائدا ذا عزيمة ، ودبلوماسيا رقيقا ، واداريا ماهرا ، وامتاز بسهره على نشر الثقافة والعلوم ، وبما بذله من جهود لادخال الاصلاحات الى مملكته ، وقد جدد تسليح البلاد ، وأقام المعاقل ، وأعاد الامن الى نصابه ، وارتبط بعلائق تجارية مع جميع دول أوربا ، وأسس مدينة الصويرة ، وكون من أجل تعميرها حركة بحرية بجعل هذه المدينة ميناء حرا ، وهذا العامل هو أول من اقترح على دول أوربا الغاء الاسترقاق ، وفي عهده أمضيت مع فرنسا عام ١٧٦٧ أول معاهدة حول الحمايات والمحاكم القنصلية .

وقبل وفاته طرد البرتغاليين نهائيا من مدينة الجديدة وخلف وراءه المغرب آمنا وديعا .

فتاريخ المغرب منذ وفاة هذا الملك وخلال القرن التاسع عشر عبارة عن عراك عنيف في الميدان الديبلوماسي للمحافظة على استقلال المغرب ووحدة ترابه . وبقدر ما كانت المطامع الاوربية تزداد الحاحا كانت المقاومة المغربية تشتد كما سيتبين ذلك في اللمحة الديبلوماسية .

مساهمة العبقرية المغربية

فى الحضارة الانسانية

ان الحضارة المغربية حضارة اسلامية ذات طابع شرقى واضح • وقد كان تأثير الشرق العربى على المغرب من العمق بحيث أن العرب والبربر منذ القدم ، كانوا معا ـ على حد تعبير سيديو ـ تذكيهم عواطف واحدة ومبادىء واحدة ، وهيام مشترك بالحرية والمجد • وقد ساعدت روح الكرم ، ووحدة طرق المعيشة ، على التقريب بين العنصرين اللذين لا يشكلان من الناحية الاتنوغرافية والتاريخية سوى عنصر واحد ، فى رأى أغلبية المؤرخين من العرب • واذا كان المغرب قد نبذ الحضارة الرومانية ، كما يقول ألفريد بيل ، فذلك لانعدام هذا المبدأ الاساسى اللازم لكل التحام • ولذلك قال مسيو بيلير « عند ما حمل عقبة الاسلام الى المغرب لاول مرة سنة ٦٨٠ رأى المغاربة فيه خلاصا لهم ، وسارعوا الى اعتناقه » •

فأخذ المغرب ، منذ ذلك الوقت ، يتطور فى دائرة النفوذ الشرقى ، ولبث ، طيلة ثلاثة عشر قرنا ، يربط مصيره بمصير الشرق العربى • وقد عرفت الدولة المغربية ، أثناء هذه المدة كلها ، ما سماه اندريه جوليان بـ « الاستمرار » •

ولا حاجة مطلقا الى القول هنا بأن هذا الاستمرار يشكل فى نفسه معجزة فى عالم تسيطر عليه روح القرون الوسطى المعاندة• فقداحتل الاتراك والنرمانديون والاسبان تونس والجزائر ، على حدود المغرب نفسها ، بينما بقى المغرب محتفظا بسيادته الكاملة زهاء الف سنة •

ومن جهة أخرى فان المغرب قام بدور مهم فى تعمير أسبانيا بمجرد ما فتحها العرب • ولذا فان تاريخ العلائق المغربية الاسبانية يبدأ منذ فجر الاسلام اذ امتزج العنصران وتمخضا عن مدنية كونت بطابعها الخاص فصلا من ألمع فصول التاريخ الفكرى فى القرون الوسطى •

صحيح أن المغرب ، كجميع البلاد ، عرف فترات اضطراب فى تاريخه ،

ومر بأزمات حادة فى بعض الاحيان ، ولكنه مع ذلك قد استطاع أن يحافظ على استقلاله ، ويرفع من قيمته الدولية ، واستطاع كذلك أن يساهم مساهمة واسعة ناجعة فى ازدهار الحضارة الانسانية .

ويشهد مستوى المعيشة المغربية ، من خلال التاريخ ، على أن الدولة المغربية كانت على الدوام تهتم بالحضارة والعمران فتظهر أعمالها فى شكل مؤسسات اجتماعية واقتصادية وثقافية مختلفة . بل كانت الطبقة المتوسطة من المغاربة تنعم بشىء من اليسر ، يفسر لنا الازدياد المستمر فى عدد السكان ، وهو أمر طالما أنكره البعض ، ولكن مؤرخين أوربيين كبارا يؤكدونه . ومن هؤلاء دوفتان ماكسانج الذى نقل رسالة تتحدث عن مملكتى فاس ومراكش ، وفيهما من المدن الجميلة مائتان وخمسون مدينة ، فى كل واحدة منها على الاقل نحو ٣٠ ألفا من السكان . وقد كانت فاس وحدها تحتوى على مليون وستمائة الف نسمة .

وهذه الارقام التى قد تظهر مبالغا فيها، قد أكدها نسبيا تقرير الرحالة الانجليزى ، الذى نقله دوكاستر ، والذى يقدر سكان فاس بنحو مليون نسمة قبل ذلك بثلاثمائة سنة .

أما دوسانت أولون ، سفير ملك فرنسا الى المغرب ، فقد قدر ، فى مذكراته ، سكان مدينة مكناس التى يصفها بأنها مدينة صغيرة ، بما يربو على الستين ألف نسمة . وقدرالاستاذ ماسينيون سكان البوادى المغربية ، نقلا عن الوزان الفاسى، بنحو السبعة ملايين . كما ذكر مؤرخ جزائرى ، عاش فى القرن الماضى بأن مجموع سكان المغرب يقدر باثنى عشر مليونا .

ولكن يبدو أن سكان المغرب قد قل عددهم نسبيا على أثر الطاعون الذى انتشر فى البلاد سنة ١٦٧٩ ، والذى اجتاح أوربا وفرنسا بالخصوص ، وذلك رغما من العنايات الطبية والاجتماعية التى أغدقها عملاء المولى اسماعيل على الشعب المنكوب ، فقد كانت المارستانات منبثة فى الجهات المختلفة .

أما عن مستوى المعيشة فقد كانت الرفاهية الاقتصادية كبيرة لدرجة أن مواد الاستهلاك الاساسية لم تكن لها أية قيمة . ولم تكن مفروضة على الناس أتاوة عدا الزكاة . وقد كان ملوك المرينيين يزودون سكان البادية المغربية بما يحتاجون اليه للقيام بأشغالهم الفلاحية . وفى عهد المولى اسماعيل ، عم الامن

جميع البلاد ، وكان المسافر يذهب من وجدة الى حدود الصحراء بدون احتياج الى حراسة ، ذلك لان نظاما بديعا يقوم على تبادل المعونة بين النواحى ، كان يمنع المجرمين أن ينفلتوا من قبضة العدالة .

ويبدو أن اليسر كان عاما لدرجة أن المغاربة ، تحت تأثير عاطفة انسانية مجردة ، قد ابتكروا فكرة اشادة مؤسسات حبسية ـ أوقاف ـ لمعالجة الحيوانات المصابة ، واطعام الطيور فى السنوات العجاف .

وتفوق المؤسسات الاجتماعية الشعبية كل عد ، كما تشهد بذلك وثائق ادارة الاوقاف . وقد نظمت الطبقة البورجوازية فى فاس مصارف تعاونية للقروض بدون مقابل ، فساعدت بذلك على النمو الاقتصادى والاجتماعى فى البلاد .

أما فيما يرجع الى الناحية الاقتصادية ، فقد كانت بعض الصنائع مزدهرة ، وكانت فاس وحدها ، على عهد الموحدين ، تعد أكثر من اثنى عشر مصهرة للحديد والنحاس ، وأحد عشر معملا لصنع الزجاج ، ومائة وثلاثين فرنا للجير ، ومعامل عديدة لصنع الصابون ، وعددا كبيرا من معاصر الزيت ومن المطاحن ، وما يربو عن أربعمائة معمل للورق . وكانت صناعة الورق قد استوردها المغرب من الشرق ، ثم انتقلت منه الى أسبانيا فى أواسط القرن الثانى عشر الميلادى . ومع ذلك فان التقدم الصناعى كان لا شىء بالنسبة الى التقدم الفلاحى . لان النظام الفلاحى هو الذى كان يطبع دائما الاقتصاد المغربى بطابعه العميق . وكان معظم سكان البلاد دائما يتكون من عنصر الفلاحين .

وقد كان المغرب يجد دائما الكفاية فى انتاجه ، بل كان يصدر الفاضل من هذا الانتاج الى الخارج . فكانت مصدراته تتكون من محصوله الفلاحى كالتمر والحنا ، ومن المعادن المختلفة كملح البارود والنحاس .. الخ .

وفى القرن الثالث عشر ، كانت الفلاندر ، وجمهوريتا البندقية وبيز ، تستصدر السكر الخام من المغرب . وكانت صناعته قد ازدهرت ازدهارا كبيرا على عهد السعديين .

أما الملح فكانت مدينتا الرباط وسلا تنتجان منه وحدهما ما يكفى ـ حسب تقدير انجليزى ذكره دوكاستر ـ لسد حاجيات انجلترا كلها .

وتدل الاحصائيات التى ذكرها بعض السياح الاجانب القلائل الذين زاروا

المغرب منذ أكثر من قرن ، على أن عدد الماشية بالمغرب يرتفع الى ثمانية وأربعين مليون رأس من الغنم ، ومن البقر ما بين ٥ و ٦ ملايين ، ومن الجمال نحو خمسمائة ألف • ومن الافراس أربعمائة ألف • ومن الحمير والبغال نحو المليونين •

أما ما يرجع الى التبادل التجارى مع الخارج ، منذ العصر الموحدى ، فان المسلمين الذين هم أول من نظموا ـ كما قال أندريه جوليان ـ أساليب التجارة ، ولاءموا بينها وبين مقتضيات التبادل الدولى ، قد علا كعبهم فى ذلك ، واقتبس منهم المسيحيون •

وفى الناحية الصناعية والمعمارية ، كانت الآلات جارية الاستعمال فى المغرب • وبذلك أمكن للموحدين أن يبنوا القناطر ، ويصنعوا منبرا فى مراكش يتحرك من تلقاء نفسه بصفة آلية وبمجرد الضغط على زر مركب فيه • وهناك آلات عجيبة أخرى كانت تستعمل فى رفع المياه ، وفى نقل مواد البناء الضخمة ، كما كان ذلك عند بناء منار الكتبية ومئذنة حسان •

وفى بداية حكم الموحدين أخرجت الورش البحرية المغربية أربعمائة سفينة حربية • وكان أسطول الخليفة الموحدى ـ كما قال أندرى جوليان فى كتابه (تاريخ أفريقيا الشمالية) ص ٤١٢ ـ أول أسطول فى البحر المتوسط • وأضاف جوليان قائلا « لذلك طلب منه صلاح الدين فى سنة ١١٩٠ أن يمد اليه يد المساعدة لايقاف زحف الملوك المسيحيين على الشام » •

وقد كانت قوة الامبراطورية الموحدية ، وسعة ثروتها ، وسطوة جيشها وأسطولها ـ كما يقول جوليان ـ مصدر سمعة هائلة لها •

وجاء المرينيون بعد الموحدين فرفعوا قوة المغرب البحرية الى أوجها • اذ انتجت الورش المغربية تحت حكم السلطان أبى الحسن المرينى ستمائة سفينة حربية ، مما جعل السلطان أبا الحسن ـ كما يقول جوليان ـ أقوى سلطان على الاطلاق فى القرن الرابع عشر •

وفى ميدان الصحة العامة ، فتح الموحدون مستشفيات فى جميع أطراف امبراطوريتهم الشاسعة • وأشهر هذه المستشفيات مستشفى مراكش الذى وصفه

المؤرخ المغربى عبد الواحد المراكشى وصفا يشهد بالدرجة الشامخة التى بلغتها الحضارة المغربية فى القرن الثانى عشر •

وفى الميدان الثقافى ، كانت فاس ، برهة طويلة من الزمن ، منبعا يشع نوره على العالم الغربى • وقد جعلت منها جامعتها الشهيرة عاصمة ثقافية يحج اليها الطلاب ، لا من شمال أفريقيا ومصر فحسب ، بل ومن أطراف أوربا • ولا نذكر هنا الا البابا سيلفيستر الذى درس فى القرويين الارقام العربية، ثم أدخلها للمرة الاولى الى أوربا • وان قبول طالب مسيحى فى جامعة اسلامية ليعطينا فكرة عن روح التسامح التى كانت تذكى قلوب المغاربة ، وقد أصبحت اللغة العربية على ضفاف البحر الابيض المتوسط ـ وقد كان بحيرة لاتينية من قبل ـ هى اللغة التجارية والعلمية • بل هناك رهبان كاثوليكيون ، فى الاندلس المغربية، هجروا اللاتينية ، وهى اللغة الدينية عند المسيحيين الغربيين ، وأخذوا يكتبون بالعربية •

وكان عدد من الاطباء العرب واليهود يقطنون فى ساليرنو بايطاليا وفى مونبولييه بفرنسا • وقد نزحوا اليهما من أسبانيا المغربية ، وأسسوا فى كلتيهما مدارس طبية لعبت دورا كبيرا فيما بعد فى تاريخ الحضارة ، عند انتقال المركز الحيوى للثقافة من الشرق الى الغرب •

أما عن الفن ـ فقد ذكر اندريه جوليان ـ أن نظرية الموسيقى ، والمراتب ، والالحان قد أتت من الشرق حيث تكونت ، الى أسبانيا حيث بقيت خالصة لم يساورها تغيير •• بينما الهندسة المعمارية المغربية تؤلف ـ كما قال جسيل ـ طرفة بديعة من الاتقان والانسجام • فالآثار الفنية ، من المنار الكتبى بمراكش الى الخيرالدا بأشبيلية ، تحمل طابع الجلال واللطافة • وان الذوق الفنى ليظهر فى كل مكان فى الحياة المغربية حتى فى الحدائق الغناء ذات الاطراف المزدهرة بالالوان الفاتنة التى جعلت رحالة هولنديا ـ كما قال دوكاستر ـ يلاحظ أن حدائق مدينة مراكش أجمل حدائق القارة الافريقية على الاطلاق ، وقد تأثر الشرق نفسه بالفن المغربى فأحدث محمد بن عبد الكريم ، وهو من مدينة فاس ثورة حقيقية فى فن الهندسة المعمارية ، عند ذهابه لمصر فى القرن الثانى عشر الهجرى • وما تزال طرائفه الفنية فى متحف القاهرة الى اليوم •

وتتنافس مدن المغرب ، أبهة ولطفا ، مع عواصم الشرق الكبرى • ولم يكن

الناس عابثين عند ما قارنوا الرباط بالاسكندرية ، وفاسا بدمشق ، ومراكش ببغداد ..

والحق أن تأثير الحضارة المغربية قد تجاوز بلاد أفريقيا الشمالية الى بلاد البحر المتوسط وشبه الجزيرة الايبيرية .

وقد دامت سلطة ملوك المغرب ، على كامل الغرب الاسلامى ، طيلة ثلاثة قرون ، وأول ملوك الموحدين الذى طرد النرمانديين من الشاطىء الافريقى ، كانت سياسته تدل على بعد نظره فى الفنون الستراتيجية ، عند ما شعر بأهمية جبل طارق ، وجعل منه قبل الانجليز بستة قرون ، قاعدة عسكرية متقدمة للدفاع عن الاندلس وحوض البحر المتوسط .

ومن جهة أخرى ، فالحضارة الاندلسية نفسها ـ كما قال أندريه جوليان ـ اصطبغت بصبغة مغربية ، ازدادت لمعانا وقوة عند ما ذهب الموحدون لمساعدة السلطة القائمة فى الاندلس . فقد وضعوا حدا للفوضى المالية التى كان ينشرها ملوك الطوائف هناك ، ودفعوا بالفلاحة فى طريق الازدهار .. الخ .

وكم من شخصيات مغربية ما تزال مشهورة فى الميدانين العلمى والادبى ، ولن نذكر من هذه الشخصيات هنا الا الشريف الادريسى الذى هو من مدينة سبتة ، والذى كان يشتغل فى بلاط روجيه الثانى ملك صقلية (١١٥٤) . ويعتبر ـ كما قال غوتييه ـ أستاذ أوربا فى الجغرافية مدة ثلاثة قرون لم تكن أوربا خلالها تملك خريطة أخرى غير خريطة الادريسى . وابن خلدون واضع علم الاجتماع ، وقواعد نقد التاريخ ، والسابق الاول للفلسفة المادية التاريخية على حد تعبير بوتول . وابن رشد الذى حلل وفسر فى كلياته آلية الدورة الدموية عند الانسان ، وذلك قبل وليام هارفي بكثير ، وابن زهر ، طبيب البلاط الموحدى الذى اكتشف الجراثيم الطفيلية ، قبل باستوربثمانية قرون ، وبالاخص جراثيم الجرب . وابن البنا الرياضى الشهير الذى كان يدرس فى القرن الثالث عشر ، وقد ألف رسالة منهاجية فى الجبر ، وسماها (التلخيص) قال فيها : ان الغرض منها هو العثور على كمية مجهولة مطلوبة باستعمال كميات معروفة اذا ماثبت بين الكميات نسبة معينة .

وللمغرب رحالون ذوو شهرة عالمية كابن بطوطة من طنجة ، وابن الوزان من فاس ، ويعرف بليون الافريقى .

أما فى الأدب ، فالقزاز كان يعتبر فى الاندلس أفقه علمـاء اللغـة ، وكان له التبريز فى ذلك على جميع زملائه فى الشرق مثل (صـاعد) البغدادى • وقد اقتبس الشاعر الايطالى دانتى مهزلته الالاهية ، فى نظر أسين بالاسيوس من ابن العربى الصوفى • وكذلك اليهودى الهولاندى سبينوزا كان متأثرا به فى فلسفته الصوفية التى لها شبه بالفلسفة العربية •

وفى هذا العهد الذى كانت فيه أوربا لم تخرج بعد من مرحلة الطلاسم فى ميدان الطب ، كانت الاندلس ، تحت مؤثرات مغربية ، تعد فى مدينة طليطلة وحدها أربعمائة مستشفى ومستوصف ، كما قال الامريكى روبنسن •وكانت تمارس الاساليب التجريبية التى لم تعرفها أوربا الا بعد ذلك بقرون على يد الانجليزى باكون

وبالجملة ، ففى كل مكان فى العالم الاسلامى نجد الأدباء والفقهاء المغاربة قد تركوا آثارا لهم • فمحمد الرودانى ، من مدينة مراكش شاهد تآليفه فى الرياضة والفقه تبلغ الى الهند ، بعد أن أدهشت العلماء بما تحتـوى عليـه من سعة اطلاع• والحرالى أدهش أدباء تونس بمشاركته وتبحره فى العلوم• والمقرى سجل نجاحا باهرا فى مسجد بنى أمية بدمشق • وابن خلدون عين قاضيا فى القاهرة • والصوفى الاكبر الشاذلى أصبح رئيسا روحيـا لأغلب الزوايا فى العالم •

وقد أكد المؤرخ الانجليزى لين بول أن المدنية المغربية العربيـة بعثت اشعاعا ثقافيا وازدهارا اقتصاديا وانسانية وبطولة فى أسبانيا تحت الحكم الاسلامى• فلما رجعت الى المسيحية انتشرت فيها الفاقة واللصوصية • ولقد تقهقـر عدد سكان أسبانيا بعد عهد الازدهار الاسـلامى حتى غدوا لايتجاوزون ٦ ملايين بعد مرور مائة سنة فحسب على انهيار آخر مملكة اسلامية بالاندلس ، بينما كان عدد سكان قشتالة وحدها ، فى زمن بنى عباد ، يتجاوز سبعة ملايين نسمة •

أما التأثير المغربى على البرتغال فقد وصـل الى درجة أن اللغـة التى كان يكتب بها البرتغاليون ـ كما ذكر ذلك كواسلك ـ كانت ممتلئة بالكلمـات الاهلية ومحررة بالخط العربى •

ويبدو هذا التأثير أيضا فيما وراء جبال البرانس الى مقاطعـة البروفانس حيث ماتزال هناك ذكريات قائمة الذات • وكذلك الشأن فى جنوب ايطاليـا ،

وفى صقلية ، حيث أشاد الصناع المغاربة خزانات مائية عظمى كما ذكر ذلك الادريسى •

أما أهمية العلاقات التى كانت قائمة بين المغرب وبقية الاقطار الاوربية الاخرى كهولندا ، وانجلترا ، والدانمارك ، والسويد ، فتبدو واضحة من خلال المستندات والوثائق التى جمعها الكونت دوكاستر من وزارات خارجية البلاد الاجنبية ،وجعلها فى ٢٠ مجلدا تحت عنوان (المصادر المخطوطة للتاريخ المغربى) •

ومن هذه العلاقات أن هولندا ـ وكانت اذ ذاك تعرف بالمقاطعات المتحدة ـ كانت طلبت قرضا من الخزينة المغربية ، على عهد السعديين،يقدر بمليون ونصف مليون دينار (٣٢٫٥٠٠٫٠٠٠ فرنك ذهبى)• كما طلب نابليون بونابرت، الذى كان يقدر قيمة المغرب الستراتيجية وبأس منكه ، من المولى سليمان أن ينضم الى الكتلة الاوربية ضد انجلترا • وقد أصبح المغرب عاملا مهما فى التوازن بين القوات الغربية ، فكان البلاط السعدى شديد الاهتمام بالتيارات السياسية المختلفة فى بلاد أوربا ، الى درجة أنه حاول أن يعزز مطامع أنطونيو فى عرش البرتغال ، فزوده بقرض قدره ٤٠٠ ألف ريال •

ان المكان الاول الذى كان يتبوؤه المغرب فى العالم الاسلامى كله ، ليظهر من خلال الدور الذى قام به فى مختلف مراحل التاريخ • وان النداء الذى أرسله صلاح الدين الى الخليفة الموحدى « المنصور » ليدل على الاقل ـ كما قال أندريه جوليان ـ على أنه كان يعتبر الملك المغربى أقدر واحد على الدفاع على الاسلام المهدد • وقد رأينا أبا عنان المرينى بعد ذلك يساهم فى تحرير طرابلس بتقديم هدية مالية قيمتها ٥٠ الف دينار • كما رأينا السلطان العلوى سيدى محمد بن عبد الله يفتدى ٤٨ ألف أسير من المسلمين كان معظمهم من الاتراك • كما أن مولاى سليمان أرسل الى ملك آل عثمان ، استجابة لنداء استغاثة أرسله الملك العثمانى اليه ، أربع صناديق ضخام من سبائك الذهب يحملها وفد خاص اليه • كما حاول فى الوقت نفسه أن يغيث تونس التى كانت تتحكم فيها مسغبة من أثر الجفاف •

وقد بلغ التضامن بين ملوك المغرب وملوك الشرق الى درجة أن المولى اسماعيل

حاصر جبل طارق ليمنع أعداء تركيا من المرور لاسطامبول • ثم بعد ذلك رفض السلطان سيدى محمد بن عبد الله أن يقابل سفير روسيا فى طنجة ، لان روسيا كانت فى حرب مع الاتراك •

وقد كانت علاقات المغرب بتركيا علاقات مشبعة بروح الود الخالص ، ولا سيما فى عصر السعديين • وقد أمضى المنصور الذهبى ، فاتح السودان الشهير ، وقاهر البرتغاليين فى معركة المخازن ، زهرة شبابه فى مدينة اسطامبول • كما عاش أخوه الاكبر عبد الملك ، فى تركيا ، حقبة من الزمن ، ومات فى معركة المخازن • وكان يتكلم بالاسبانية ويكتب بها ـ كما قال كواساك ـ ويكتب أيضا بالايطالية والتركية •• أليس فى هذا تكذيب قاطع لاولئك الذين يزعمون أن المغرب منعزل بطبعه ، غير قابل للتأثر بالمدنية الغربية لضيق عطنه •

وهذا الملك المستنير يعطينا كذلك برهانا على تسامحه الواسع ، ومثاليته الانسانية السامية ، عند ما أمر ببناء مستشفى قرب أحد المساجد بمراكش لمعالجة الاسرى المسيحيين ، كما ذكر ذلك الانجليزى ادمون هوجار •

وبعد هذه المدة رأينا مولاى اسماعيل يهتم شديد الاهتمام بالتطورات السياسية فى أوربا ، الى درجة أنه وظف مستشارا خاصا له فى هذا الموضوع ، هو الامير مولاى العربى ، الذى سبق له أن عاش مدة طويلة فى أوربا • كما رأينا سفير فرنسا يندهش لصراحة المولى اسماعيل ومعرفته الدقيقة بانتصارات لويس الرابع عشر وانهزاماته فى الحروب الاوربية •

أما السلطان مولاى الحسن فقد كان شديد الاهتمام بتطور بلاده على نسق أوربا • فأرسل بعثات من الشباب المغربى ليتعلموا فى مختلف جامعات أوربا ، وليتكونوا تكوينا فنيا عصريا • بينما المولى عبد العزيز لم يتأخر من جهته عن جلب الفنيين الاوربيين لتنظيم الجيش المغربى ومصالح المالية •

وفى سنة ١٩٠٨ ، فقط ، أمر المولى عبد الحفيظ ـ وكان له ولع شديد بالحياة النيابية فى أوربا وتركيا ـ النخبة المغربية بتحضير دستور ديمقراطى للبلاد ، وقد نشرت هذا الدستور جريدة عربية كانت تصدر فى طنجة اذ ذاك • غير أن الدسائس الاوربية التى أدت فى الاخير الى فرض الحماية على المغرب ، لم تكن لتسمح بموالاة المساعى لتطوير البلاد فى جو ملائم •

قال ليبرى نقلا عن جوستاف لوبون : « لو لم يكن العرب فى التاريخ لتأخرت نهضة الآداب بأوربا عدة قرون » •

وقد كان معظم هؤلاء العرب الذين يعنيهم بقوله مغاربة أثروا بواسطة الاندلس على المدنية الغربية •

وهكذا فان المدنية المغربية قد ساهمت بالنصيب الاوفر فى تلك الحركة الفكرية الرائعة التى حررت الانسانية من الخرافات • ولئن تظافرت الجهود لفتح الطريق الحق للتقدم البشرى فى فجر العصر الحاضر ، فان الفضل فى تلك الجهود يرجع معظمه الى الحضارة الاسلامية فى المغرب •

obeikandl.com

نظرة دبلوماسية عن المغرب

أهم ما عنيت به الدبلوماسية المغربية دائما منذ تأسست هذه المملكة هو حفظ استقلال المغرب والارتباط بعلائق طيبة مع الدول المجاورة • وهذا ما يفسر لنا نزعة المغرب القارة الى الاحتفاظ بحريته ازاء امبراطورية الشرق الاسلامية •

ولم يظهر المغرب على المسرح الدولى الا ابتداء من منتصف القرن الحادى عشر الميلادى بعد ما توطدت حدوده الجغرافية الطبيعية •

وفى المدة المتراوحة بين القرن الحادى عشر والقرن الثالث عشر بلغ المغرب على عهد المرابطين والموحدين أوج عظمته ومجده ، فصارت حدوده تمتد الى تخوم ليبيا وتخضع له الجزيرة الايبرية المسلمة (أى كل من أسبانيا والبرتغال) غير أن المغرب اضطر الى التراجع نحو حدوده فى نهاية القرن الخامس عشر عند ما أصبح مهددا شمالا بالغزو الاسبانى (كان سقوط غرناطة فى عام ١٤٩٢) وشرقا بالغارة التركية •

وطوال القرن السادس عشر عملت الدبلوماسية المغربية على ايقاف الحملة التركية وتفريق كتلة الملوك المسيحيين ، وبفضل انتصار الدولة السعدية الباهر فى معركة وادى المخازن على الجيش البرتغالى عام ١٥٧٨ تمكن المغرب من توطيد السلام لا فى حدوده فحسب ، بل كذلك من التوسع فى الجنوب توسعا انتهى به الى احتلال السودان بتاريخ ١٩ مارس سنة ١٥٩١ •

المملكة المغربية فى القرنين السابع والثامن عشر

عاش المغرب خلال القرنين السابع والثامن عشر فى هدوء نسبى لان الامم الاوربية كانت منغمرة فى حروب الاصلاح الدينى والثورة بأوربا •

وفى عهد المولى اسماعيل جرت مذاكرات بين البلاط المغربى ولويس الرابع عشر ملك فرنسا من أجل ابرام حلف بين البلدين • غير أن الاتفاق لم يحصل سواء على يد السفارة الفرنسية التى استقبلت عام ١٦٨٩ فى القصر السلطانى بمكناس أم على يد السفارة المغربية التى كان يترأسها ابن عائشة والتى توجهت

عام ١٦٩٨ الى قصر فرساى وكان سبب الاخفاق يرجع الى أن مولاى اسماعيل كان يرغب فى عقد تحالف عسكرى ضد أسبانيا المستقرة اذ ذاك فى سبتة ، بينما كان لويس الرابع عشر يرغب فى مساعدة التجارة الفرنسية من وراء هذا الحلف ممتنعا عن القيام ببذل أية مساعدة للمغرب ضد أمة كاثوليكية •

وأهم المعاهدات الدبلوماسية التى أبرمت طيلة هذه المدة مع الدول الاجنبية لا تخرج عن كونها اما معاهدات صداقة وتجارة ، واما اتفاقيات لتسوية المشاكل الناجمة :

١ ـ عن القرصنة الدولية التى كانت تعمل فى المحيط الاطلسى وغربى البحر الابيض المتوسط •

٢ ـ وعن مسألة التمثيل الدبلوماسى واستقرار الرعايا الاجانب بالمغرب •

٣ ـ وعن افتكاك الاسرى •

غير أن هناك معاهدتين أبرمتا مع أسبانيا بتاريخ ٣٠ مايو ١٧٨٠ وفاتح مارس ١٧٩٩ تستحقان الذكر بصورة خاصة ، ففى المعاهدة الاولى تواعدت المملكة المغربية والمملكة الاسبانية بتبادل الاعانة والمساندة ضد أعداء كل واحد منهما ، وفى المعاهدة الثانية وعدت كل واحدة الاخرى بملازمة الحياد التام فيما اذا قامت حرب بين أحد الطرفين ودولة ثالثة •

ونذكر هنا على سبيل الافادة أهم المعاهدات المبرمة مع الدول الاجنبية فى القرنين السابع والثامن عشر فقد أبرم المغرب مع انجلترا معاهدتين : الاولى سنة ١٦٣٠ والثانية سنة ١٧٦٠

ومع الدنمارك معاهدة ١٧٥٧

ومع أسبانيامعاهدات ١٧٦٧ و ١٧٨٠ و ١٧٩٩

ومع الولايات المتحدة الامريكية معاهدة ١٧٨٧ •

ومع فرنسا معاهدات ١٦٣١ و ١٦٨٢ و ١٧٦٧

ومع هولندا معاهدات ١٦١٠ و ١٦٥١ و ١٦٨٣

ومع ايطاليا معاهدتى ١٧٦٢ و ١٧٦٥

ومع البرتغال معاهدتى ١٧٧٢ و ١٧٩٩

ومع السويد معاهدة ١٧٦٣ •

ويجب الاعتراف بأن الدبلوماسية المغربية قد برهنت في مفاوضاتها مع أوربا عن روح جامعة بين حب السلام والتسامح الى أقصى حد فزيادة على ما حصلت عليه دول أوربا لرعاياها في المغرب من فوائد في الميدانين التجاري والديني ، حصلت لهم كذلك على امتيازات ديبلوماسية بمدة اقامتهم بالمغرب رغم كون القانون الدولي العام لا يخول هذا النوع من الامتيازات الا للموظفين بالسفارات وحدهم .

وقد أمكن للمغرب بعد ذلك أن يدرك ماارتكبه من أخطاء في دبلوماسيته ، وكان عليه فيما بعد أن يؤدي غاليا ثمن حسن نيته ونزعته الحرة لانه لم يحاول أن يفهم عقلية أنداده من الدول ، ولانه أهمل على الخصوص المثل القائل : « اعطه بقدر ما يعطيك » ، ذلك المثل الذي كان رجال الدول الاوربية يجعلون منه قاعدة لسلوكهم .

المغرب في القرن التاسع عشر

تعرضت وحدة التراب المغربي في القرن التاسع عشر لمحنة قاسية ،ذلك أن مؤتمري فينا سنة ١٨١٥ وايكس لاشبيل سنة ١٨١٨ الذين تقرر فيهما اعادة تنظيم أوربا وجلاء جيوش الاحتلال من فرنسا ، ثم أفول نجم الدولة العثمانية كل ذلك تمخض عنه انطلاق القوات الاوربية من عقالها ، والزج بها في مغامرات استعمارية فوقعت اذ ذاك مسابقة حقيقية بين تلك القوات نحو بقية الاقطار ، ولما تم توزيع أفريقيا الوسطى كلها أصبحت أفريقيا الشمالية بدورها معرضة الى الخطر .

وكان أعظم خطر على المغرب هو احتلال فرنسا للجزائر عام ١٨٣٠ ، فان المغرب اضطر لأجل ايقاف مطامع الاعداء الى محاربة فرنسا (١٨٤٤-١٨٤٥) ، وأسبانيا ١٨٦٠ على التوالي واذا لم تكن هزائم المغرب قد أسفرت عن عواقب وخيمة فان بعض ذلك يرجع الى تدخل انجلترا الدبلوماسي .

وقد نسيت معظم الامم الكاثوليكية ، ولا سيما منها أمم جنوب أوربا التي كانت لا تزال تحت تأثير الروح الصليبية الانتقامية ـ الاستعدادات الطيبة التي سبق أن أبداها نحوها ملوك المغرب في القرون الماضية ، فلم تكن هذه الدول تحترم

مقتضيات معاهداتها مع المغرب الا ما دام المغرب قويا ، لذلك رأيناها تغتنم فرصة هذه الانهزامات لتتكتل وتحاول التدخل فى شئون المغرب الداخلية مستندة فى ذلك الى ما خولها المغرب عن طيب خاطر من امتيازات دينية ودبلوماسية ، فكانت تلك الدول تستغل أدنى حادث لتقوم جميعها على وجه التقريب باحتجاج تصحبه أحيانا تهديدات بالتدخل العسكرى •

ويجب أن نعترف بأن المغرب استفاد من مساندة انجلترا له طيلة ثلاثة أرباع هذا القرن الى حدود ١٩٠٤ فقد وقفت انجلترا لغاية هذا التاريخ موقف المنافح عن كيان المغرب ووحدته الترابية ذلك أن انجلترا كانت دولة بحرية قابضة منذ ١٧٠٤ على زمام مضيق جبل طارق ، فلم تكن لتسمح بوقوع أى تغيير عميق فى توازن القوات القائمة ، لذلك كان نشاطها يهدف الى ابقاء ما كان على ماكان فى غرب البحر الابيض المتوسط ، ولا سيما بالشاطىء المغربى •

على أن الحكومة المغربية لم تبق مكتوفة الايدى ففى عهد المولى محمد بن عبد الرحمن تحررت الديبلوماسية المغربية تحررا تاما فأصبحت طنجة عاصمة المغرب الدبلوماسية ، واستدعى الدبلوماسيون الاجانب الى الاقامة بهذه المدينة ، فأصبحوا يتصلون منذ ذلك بالحكومة المركزية عن طريق ممثليها بهذه المدينة ووزير خارجية السلطان بفاس ، وبذلك وقع حسم دسائس بعض القناصل داخل البلاد ، وانتهى أيضا عهد الاتفاقات الثنائية •

فقد فضلت الحكومة المغربية أن تسوى بتاريخ ٣١ مارس سنة ١٨٦٥ مع الهيئة الدبلوماسية التى تسهر من طنجة على مصالح الاوربيين بالمغرب قضية احداث منار فى المكان المعروف برأس سبرطل •

عقد مدريد

كما سوت الحكومة المغربية مع الدول التى يهمها الامر مباشرة فى مؤتمر انعقد بمدريد عام ١٨٨٠ مشاكل الحماية الدبلوماسية التى كان أمرها قد استفحل اذ ذاك وكذلك المشاكل المتعلقة بحق ملكية الاجانب وتجنس الرعايا المغاربة بجنسية أجنبية وقد تقرر منذ ذلك العهد عدم تخويل أية حماية للرعايا المغاربة بصورة غير قانونية ولا رسمية ، وبذلك أصبح عدد المحميين لا يتجاوز الاثنى

عشر عن كل دولة (المستخدمون التجاريون أو المحميون الاستثنائيون نظرا لما أدوه من خدمات) لان هذه الحماية كان يترتب عنها بالاخص سحب الرعايا المغاربة من الخضوع لمحاكمهم الطبيعية واخضاعهم لمحاكم قنصلية • الامر الذى يمس بالسيادة المغربية ، ويمكن القول بأن امضاء اتفاقية مدريد بتاريخ ثالث يوليو من طرف ممثلى ثلاث عشرة دولة ـ منها المغرب ـ كان ظفرا عظيما لدبلوماسية جلالة السلطان مولاى الحسن فقد حاولت فرنسا عبثا الحيلولة دون انعقاد المؤتمر لانها شعرت بأن من شأنه أن يزعزع مركزها ويعارض مطامحها فى المغرب ، تلك المطامح التوسعية التى كانت تزداد ظهورا يوما فيوما ، والتى كان بيسمارك الالمانى يشجعها قصد تحويل نظر الفرنسيين عن هزيمتهم الاخيرة عام ١٨٧٠ وعن فقدهم مقاطعتى الالزاس واللورين •

وبالجملة فان اتفاقية مدريد باعترافها « بمقام ممتاز » لكل واحدة من الدول الموقعة عليها قد أحبطت كل تدخل أجنبى فى المغرب ، وحفظت للبلاد استقلالها ووحدتها الى أوائل القرن العشرين • .

نعم ، لقد خسرت فرنسا بذلك معركة المغرب الدبلوماسية ، غير أنها ربحت معركة تونس عام ١٨٨١ على أثر انعقاد مؤتمر برلين بتاريخ ١٨٧٨ لبحث المسألة الشرقية ، أى مسألة تقسيم الامبراطورية العثمانية •

المغرب فى بداية القرن العشرين (١٩٠٠ ـ ١٩١٢)

وفى القرن العشرين تغلب نظام القوة ، واشتد تنافس الدول الاستعمارية فى شأن المغرب ، فبلغ من الحدة ما لم يبلغه من قبل •

فان فرنسا التى كانت قد قبضت على زمام المقاطعتين التركيتين السابقتين ، تونس والجزائر قد صرفت جهودا للمغرب حيث صارت تثير للحكومة المغربية مصاعب خطيرة ، فكان دفع بوحمارة الى الثورة فى المغرب الشرقى عام ١٩٠٣ أحسن مثال لذلك ، فهذه الثورة وليدة الدسائس التى قامت بها « نورتى أفريكا » وهى جمعية كان على رأسها م ايتيين وزير داخلية فرنسا اذ ذاك وكان من أعضائها م ماسنى و م شنيدر وغيرهم •

ومن جهة أخرى شرعت الحكومة المغربية حوالى ١٩٠١ فى نهج سياسة

اصلاحات مالية وادارية وعسكرية فلجأت من أجل ذلك الى معونة الاختصاصيين الاجانب ، ولكن فرنسا عملت على احباط هذه الاصلاحات التى أرادت هى أن تحتفظ بتوجيهها والاشراف عليها •

وقد كتب اذ ذاك سفير فرنسا بفاس الى حكومته قائلا : « ان أحسن سياسة هى احتلال وجدة واعلان فرنسا شروط انسحابها عنها سلفا ، وزيادة على ذلك فانى متيقن أن مساعى لدى دول أوربا ستكون نافعة فى اعلان كلمة فرنسا ، وتقوية نفوذها على المخزن » •

وهكذا فان الدبلوماسية الفرنسية ستحاول تسوية قضية المغرب خارج المغرب فتقوم بالمساعى والمساومات التى ستؤدى الى امضاء اتفاقات سرية مع الدول التى تضايقها فى المغرب •

الاتفاق الفرنسى الايطالى فاتح يونيو سنة ١٩٠٢

حصلت ايطاليا بموجبه فى مقابل تنازلها لفرنسا عن المغرب على حرية العمل فى طرابلس الغرب •

الاتفاق الفرنسى الانجليـزى ٨ أبريل سنة ١٩٠٤

كانت تسوية قضية مصر ميدانا لوقوع هذا الاتفاق بين الدولتين ، فقد التزمت فرنسا فيه بعدم عرقلة عمل الانجليز فى مصر ، واعترفت انجلترا فى مقابل ذلك بأن لفرنسا أن تسهر على سلامة المغرب ، وأن تعده بكامل مساعدتها فيما يحتاجه من اصلاحات ادارية واقتصادية وعسكرية ومالية ، وذلك نظرا لكون فرنسا دولة مجاورة للمغرب ـ الفصل ٢ ـ وينص الفصل المذكور كذلك عـلى « تصريح حكومة الجمهورية الفرنسية بأنها لا تنوى تغيير وضعية المغرب السياسية » •

وينص الفصل السابع على ما يلى :

« قصد ضمانة حرية المرور بمضيق جبل طارق تتفق الحكومتان على عـدم السماح باقامة تحصينات ومعاقل سـتراتيجية كيفمـا كانت فى الساحل المغربى الواقع بين سليلية والهضاب المشرفة على الضفة اليمنى فقط لنهر سو » •

ويعتبر الفصل الثامن ما لاسبانيا من مصالح تستمدها من وضعها الجغرافى وممتلكاتها على الشاطىء المغربى للبحر الابيض المتوسط •

الاتفاقية الفرنسية الاسبانية ٣ أكتوبر سنة ١٩٠٤

صادقت أسبانيا فى هذه الاتفاقية على الاتفاق الفرنسى الانجليزى فى الثامن من أبريل ، وحصلت فى المغرب على منطقة نفوذ لها ، وينص الفصل الثالث من هذه الاتفاقية على أنه : « اذا ما تعذر الابقاء على وضع المغرب السياسى أو وجود الحكومة المغربية ، واذا ما استحال حفظ هذا الوضع بسبب ضعف هذه الحكومة أو عجزها المستمر عن ضمانة الامن والنظام ، أو لاى سبب من الاسباب ، تقع ملاحظته من جانب الطرفين ، فان أسبانيا يكون فى وسعها أن تقوم بعملها بحرية فى الناحية المحددة فى الفصل السابق ، والتى تصبح من الآن منطقة نفوذلها » •

وكانت مدينة طنجة موضوع الفصل التاسع الذى نص على أنها ستحتفظ بصبغتها الخاصة الناجمة عن وجود هيئة دبلوماسية فيها وعن مؤسسات بلدية وصحية •

ولكن رد فعل الدبلوماسية المغربية ضد هذه الاتفاقات ما فتىء أن أصبح شيئا محسوسا •

فان جلالة السلطان مولاى عبد العزيز أجاب المبعوث الفرنسى الذى جاء اليه ليقنعه بضرورة تحقيق التعاون الفرنسى المغربى ، وليحاول الحصول منه على الاتفاقية الافرنسية الانجليزية بقوله :

« غريب هذا التعاون الذى تقترحه على فرنسا ، وهو أن أوزع مملكتى على الاجانب » •

وقد اتجهت الحكومة المغربية نحو المانيا التى وجدت فيها كفة التوازن المرغوب فيه ، فهذه الدولة لم تكن فحسب موتورة بسبب اقصائها عن المساواة الاخيرة ، بل أنها كانت تعتبر الاتفاق الفرنسى الانجليزى بمثابة تطويق للامبراطورية الالمانية ، لذا فانها لم تتردد فى امداد الحكومة المغربية بأثمن مساعدة دبلوماسية ، لا سيما وانها كانت قد حصلت عام ١٨٩٠ من المغرب على

معاهدة تفيد مصالح رعاياها ، وانها تلقت عام ١٩٠١ سفارة مغربية فوق العادة كلفت بتوثيق الروابط الطيبة بين البلدين .

وفى يوم ٣١ مارس ١٩٠٥ نزل غليوم الثانى امبراطور المانيا بطنجة حيث أجاب مولاى عبد المالك عم السلطان ورئيس الوفد المغربى الذى جاء لاستقباله باسم جلالة السلطان مولاى عبد العزيز قائلا :

ان زيارتى هذه هى لسلطان المغرب الملك المستقل ، وأتمنى أن يظل المغرب تحت سيادته العليا مفتوحا لمزاحمة سلمية بين جميع الدول بدون أى احتكار ولا الحاق ، وبكامل المساواة ، وان زيارتى هذه لطنجة لتهدف الى اعلان عزمى على بذل كل ما فى وسعى لحماية مصالح المانيا بالمغرب حماية فعالة ، وبما أننى أعتبر السلطان حرا كامل الحرية فاننى أريد أن أتفق معه وحده على الوسائل الكفيلة بحماية هذه المصالح .

وهذا التصريح الذى له مغزاه قد أحدث صدى عميقا فى العواصم الاوربية فرأت كل من فرنسا وأسبانيا مشاريعهما تنهار فى اقتسام المملكة المغربية .

مؤتمر الجزيرة الخضراء ٧ أبريل سنة ١٩٠٦

ولاحباط الاتفاقات السرية طلبت الدبلوماسية المغربية انعقاد مؤتمر دولى ، وللمرة الثانية لم تأبه الدول بالمعارضة الفرنسية فاجتمع المؤتمر بالجزيرة الخضراء يوم ١٥ يناير ١٩٠٦ بحضور جميع ممثلى الدول الموقعة على اتفاقية مدريد لسنة ١٨٨٠ .

وبعد ما أعلن المؤتمر المبدأ الثلاثى الذى كان أساس المداولات وهو :

ا) سيادة جلالة السلطان واستقلاله .
ب) وحدة مملكته .
جـ) المساواة التجارية بين الدول الممثلة فى المؤتمر .

قرر المؤتمر برنامج اصلاحات جبائية وجمركية التى رآها ضرورية لاقرار الامن والرفاهية فى المملكة المغربية .

وأهمية عقد الجزيرة الممضى يوم ٧ أبريل ١٩٠٦ بالنسبة للمغرب تتلخص

فى ابقاء ما كان على ما كان بالمغرب واستبدال مبدأ التقسيم المقرر من طرف الاتفاقات السرية بمبدأ اعانة دولية لمغرب حر مستقل ، وبذلك أصبحت القضية المغربية قضية دولية .

وفى ظل هذه الحماية الدولية أمكن للمغرب أن يسوى بدون أى خطر مشكلة الانقلاب السياسى الذى وقع عام ١٩٠٨ حيث خلف مولاى حفيظ أخاه مولاى عبد العزيز فاعترفت بذلك الدول بدون صعوبة يوم ٥ يناير سنة ١٩٠٩ .

انعزال المغرب السياسى سنة ١٩١١

ان الحادث الذى وقع فى أجادير فى شهر يوليو من سنة ١٩١١ (ارسال الباخرة الحربية الالمانية « بانطير » الى ميناء مغربى) قد أفهمت فرنسا ان تحقيق مطامعها الاستعمارية يتوقف على المانيا فقر عزمها على التفاوض اذن مع هذه ، وفى ٤ نوفمبر فى نفس السنة أبرم اتفاق بين الدولتين حصلت فرنسا بمقتضاه على حرية كاملة للعمل بالمغرب فى مقابل تسليم الكونغو بأفريقيا الاستوائية الى المانيا .

وينص الفصل (١) من هذه المعاهدة على ما يلى :

« تصريح الحكومة الملكية الالمانية بأنها نظرا لكونها ليس لها فى المغرب سوى مصالح اقتصادية فانها لن تعرقل عمل فرنسا الرامى الى امداد الحكومة المغربية بالمعونة من أجل ادخال جميع الاصلاحات الادارية والقضائية والاقتصادية والمالية والعسكرية التى هى فى حاجة اليها لحسن تسيير المملكة المغربية ، وللتنظيمات الجديدة وما تتطلبه هذه الاصلاحات من تعديلات فى الانظمة الموجودة »

فهى على هذا توافق على التدابير الرامية الى تجديد النظام والمراقبة والضمانة المالية التى ترى الحكومة الفرنسية ضرورة اتخاذها باتفاق مع الحكومة المغربية مع تقييد عمل فرنسا هذا بحفظ المساواة الاقتصادية بين الدول فى المغرب .

وفيما اذا اضطرت فرنسا الى توسيع نطاق مراقبتها وحمايتها فان الحكومة الملكية الالمانية تعترف لفرنسا بكامل الحرية فى العمل بشرط استمرار الحرية التجارية المقررة فى المعاهدات السابقة ولن تضع أى عقبة فى هذا السبيل

وفى رسالة تحمل نفس التاريخ وجه كاتب وزارة الخارجية الالمانية رسالة

الى السفير الفرنسى ببرلين جاء فيها : « قصد توضيح الاتفاق المبرم بتاريخ ٤ نوفمبر سنة ١٩١١ حول المغرب أتشرف باعلام سعادتكم بأنه اذا ما رأت الحكومة الفرنسية من الضرورى فرض حمايتها على المغرب فان الحكومة الملكية الالمانية سوف لا تعرقل ذلك •

وهكذا فان الاتفاق الفرنسى الالمانى الذى أضيف اليه فى يوم ٢٧ نوفمبر سنة ١٩١١ اتفاق فرنسى أسبانى يحدده ويحدد الاتفاقات السرية السالفة ـ وهو لا يتمم تطويق المغرب فحسب من الناحية الدبلوماسية ، بل يفتح كذلك باب المغرب فى وجه الحماية الفرنسية على مصراعيه •

وبما أن المغرب بقى وجها لوجه مع خصومه المعاندين فانه اضطر للعدول عن النضال بقوة لا تتعادل مع قوة هؤلاء الخصوم •

ونظرا لكون الحكومة كانت تهتم بتحديد الخسارة فانها لم تر بدا من الاستسلام للشروط المملاة عليها وهى المصادقة على اتفاقية برلين ، والموافقة على الحماية الفرنسية • غير أنها أبدت تحفظات فيما يخص الحماية ، ويتجلى طابع التحفظات من المذكرة المسلمة للحكومة الفرنسية من طرف السفير المغربى بباريس ، فقد صرح جلالة السلطان عبد الحفيظ فى هذه المذكرة قائلا :

« اننى ألفت نظر الحكومة الفرنسية الى كون المغرب لم يخضع منذ الفتح الاسلامى لاية دولة أجنبية كمستعمرة ، وانه ما فتىء يتمتع باستقلاله منذ ثلاثة عشر قرنا ، فلهذا السبب لا يمكن تشبيه المملكة المغربية ببلاد مستعمرة » •

ان المقاومة التى أبداها آخر ملك للمغرب المستقل قبل امضاء عقد الحماية لمفجعة حقا ، فقد فكر جلالة السلطان مولاى عبد الحفيظ أولا فى تحكيم أوربا ضد فرنسا ، غير أن معظم الدول كانت أغراضها قد أشبعت فلم تر ما يدعو الى محاولة وضع القضية المغربية على البساط الدولى من جديد فظهر له اذ ذاك أن التنازل عن العرش هو أشرف الحلول حيث قال للوزير الفرنسى رينيو : « اننى أفضل التنازل عن العرش على أن أتسبب فيما يحط من قدرى وأن أدخل فرنسا الى مملكتى » •• ولكن فرنسا عارضت فى ذلك لانها لم تكن تريد هذا التنازل حيث كان يهمها بالعكس أن تظهر لاوربا أن الحماية لم تفرض بالقوة • وهكذا فان م رينو الذى تولى تسيير هذه المذاكرات النشيطة مستخدما تارة

الوعد ، وتارة الوعيد قد وصل ـ كما يلاحظ ذلك م روبير رولو فى كتابه على هامش الكتاب الاصفر ـ الى توقيع معاهدة ٣٠ مارس سنة ١٩١٢ فى الساعة الحادية عشرة من هذا اليوم فتم بذلك نجاح مأموريته الطويلة .

ويجب أن نلاحظ أنه فى هذا التاريخ كانت فاس عاصمة المغرب محتلة من طرف السلطات الفرنسية وانها عاشت طيلة شهر بعد ذلك تحت الارهاب ، حيث انطلقت البطاريات الفرنسية وتوالت الاعدامات ، وفرضت على السكان ذعيرة قدرها مليون من الفرنك لقيامهم ضد المعاهدة ، وأمام هذه الحوادث الدامية عزم مولاى عبد الحفيظ على التنازل عن العرش فأجابه الوزير الفرنسى قائلا : « سأعارض ذلك بالقوة اذا اقتضى الحال » . ولكن فى ١٢ أغسطس ١٩١٢ تخلى السلطان مع ذلك عن الحكم وغادر وطنه معللا تنازله عن عرشه بقوله : « لم يبق لى أى نفوذ حتى صرت لا أكاد أبذل النصح الا بشق الانفس وقد كبلت رجلاى وسلسلت يداى وقيل لى احكم .

وقد كتب م شوفيل فى كتابه : « مبدأ الدولة والجنسية بالمغرب » : « ان تاريخ المغرب الدبلوماسى يبرهن على أن سيادة السلاطين وجدت الفرصة منذ زمن طويل وفى مرات مختلفة للظهور فى الميدان الدولى » .

ويستخلص من تحليل مختلف المعاهدات أمران جوهريان :

١ ـ أن سلطان المغرب يظهر فيها على قدم المساواة مع الملوك الذين يتعاهد معهم .

٢ ـ ان مبدأ سيادة السلطان ترابيا وسياسيا لم يكن قط موضوع شك ، بل كان بالعكس معترفا به ومصرحا به بوضوح فى مختلف المعاهدات ، لا سيما ابتداء من القرن التاسع عشر .

ورغم بعض المظاهر المنافية لذلك ، وكذلك بالرغم عن الاسباب الحقيقية للضعف والانقسام فان المغرب القديم كان دولة مستقلة تتشبث باستقلالها ، وتتشدد فى مسألة الحدود ، وتتعلق أكيد التعلق برعاياها ولا تسمح لهم بالاحتماء بالحماية الاجنبية الا بصورة محدودة .

وقد ظلت سيادة سلاطين المغرب محفوظة فى مبدئها لا فيما يخص علائق البلاد مع الدول أو الرعايا الاجانب فحسب ، بل أيضا فيما يتعلق بكل ماله صلة بتحضير القوانين الوطنية وتطبيقها على الرعايا المغاربة .

نظام المغرب قبل الحماية

١ ـ النظام السياسى والادارى

ما لبث المغرب بعد أن أصبح دولة اسلامية مستقلة أن انتظم سياسيا واداريا حسب قواعد القانون الدستورى الاسلامى •

فأنيطت مقاليد السلطة منذ ذلك الحين بملكية تسهـــر على مصالح الشعب الدينية والمـادية •

وهذه الملكية وراثية مبدئيا ، ولكن اذا ما تقاعس الملك عن القيام بواجباته الاساسية ، فان الرعايا يتحللون من واجب الطاعة بحيث يصـبح فى الامكان تبديل الملك طبقا للشروط المقررة فى الشريعة • ويتركب المجلس المـكلف بتعيين خلفه من هيئة العلماء والشرفاء والوزراء •

أ ـ الحكومة المركزية :

الملك ، والملك هو الذى يقبض على مقاليد البلاد بصفته المزدوجة كرئيس سياسى ورئيس دينى • وهو يجمع بين السلطة التشريعيةوالتنفيذية والقضائية •

وان مجالس العلماء كثيرا ما يتاح لها أن ترشده مباشرة أو غير مباشرة فى الشئون العادية وفى الظروف الحرجة على الاخص •

الحكومة الملكية

وتتألف الحكومة الملكية من نوعين : من المصالح : مصالح البـــلاط ، ومصالح الدولة •

١ ـ مصالح البلاط

يناط أمر مصالح البلاط بموظفين ساميين ليس لهما مع ذلك رتبة وزير ، وهما الحاجب وقائد المشور •

obeikandl.com

فللحاجب الاشراف على الادارة داخل القصر وعلى مواد مخيمات الملك ، وكذلك حراسة الطابع الذى يجب أن تذيل به جميع الوثائق الرسمية الصادرة عن الملك .

وتتركب المصلحة التى يشرف عليها الحاجب من هيئات يسند أمر كل منها الى موظف مسئول . وهى تتكون من أصحاب الاروى والفرايكية ، والجزارة ، وأصحاب الشاى والفرش وأصحاب الوضوء والماء .

أما قائد المشور فانه مكلف بالسهر على القصر وعلى الحفلات الخارجية . فهو الذى يتولى الاشراف على الحفلات الرسمية ويكون فى ذلك لسان السلطان . وله مهام أخرى صعبة ، مثل القاء القبض على الولاة أو كبار الموظفين الذين يخونون واجبهم .

ويعمل تحت اشراف قائد المشور ثلاثة فروع :

فرع المشاورية الذين يختار من بينهم حملة المظلة والرايات فى الحفلات الرسمية .

فرع المسخرين وهم فى الغالب فرسان يكلفون بالبريد الحكومى فى الاقاليم

فرع الفرادا وهو الحرس الملكى الشريف .

٢ – مصالح الدولة (المخزن)

يعين الملك فى ادارة شئون البلاد وزارة مكلفة – تحت اشراف الصدر الاعظم – بتطبيق القرارات الملكية والسهر على حسن سير مختلف مصالح الدولة ، وحفظ التقاليد السياسية فى المملكة .

ويجمع الصدر الاعظم بين رئاسة الوزارة ووزارة الداخلية . ويشرف على جميع الادارات المركزية والاقليمية . كما يعين بعد مصادقة جلالة الملك كبار الموظفين المدنيين والعسكريين . ويعينه فى ادارة سياسة الدولة داخليا وخارجيا وزراء يتغير عددهم تبعا لمقتضيات الظروف .

وتتألف الحكومة المغربية عادة من :

– الصدر الاعظم وهو وزير الداخلية .

ـ وزير الشئون الخارجية •
ـ وزير الحربية •
ـ وزير المـالية •
ـ وزير العدلية

الممثل السلطانى فى طنجة

وفى طنجة حيث تقيم منذ النصف الثانى للقرن التاسع عشر الهيئة الدبلوماسية يمثل جلالة السلطان نائب تتخابر الحكومة المغربية بواسطته مع الوزراء المفوضين عن الدول بالمغرب •

ب) الولاة الاقليميون

يتولى النيابة عن السلطان فى النواحى ولاة مدنيون يطلق عليهم اسم العمال أو الباشوات • وهذا الاسم الاخير يدل على أن لهذا الوظيف صبغة عسكرية •

وبما أن هؤلاء الولاة يمثلون السلطة المركزية ، فانهم يضيفون الى الاختصاصات العسكرية والجبائية ، مهمة السهر على الامن ومراقبة الادارات المحلية ، كالقباضات الجبائية والاملاك المخزنية ونظارة الاحباس وهلم جرا •• وهم الذين يتولون توزيع الضرائب وتجنيد الجند ، كما يتولون بعض اختصاصات القضاء ، حيث تنظر محاكمهم فى المخالفات والاجرامات (من ضرب وجرح)

وتنقسم كل ناحية الى أقسام يقوم على رأسها شيخ يعينه الوالى ، وهو الذى يتولى الوساطة بين العامل وبين الناس •

ويوجد فى الناحية مجلس جماعة يتألف من أعيان يختارهم فى الغالب الرعايا أنفسهم ، ومهمتهم اعطاء رأيهم فى ادارة مصالح الجماعة •

وتتجزأ الاقسام المذكورة الى مداشر يمثلها مقدم يتولى أمرها تحت اشراف الشيخ •

٢ ـ النظام العسكرى

بما أن الخدمة العسكرية لم تكن اجبارية فان الولاة يكلفون بتجنيد الجند

كلما احتاجت الدولة الى عسكر • ولكن عند ما يهدد الوطن خطر خارجى ، يقرر النفير العام ، ويجند الناس مبدئيا على نسبة جندى واحد عن كل دار •

ولم يكن يتوفر بالمغرب فى البداية جهاز عسكرى قومى • ولكن اتساع نطاق الامبراطورية المغربية فى القرن الثانى عشر وانتصارات المغرب الباهرة فى أسبانيا وشرقى المغرب دفعت ملوك المغرب الى القيام بتحوير النظام العسكرى على أسس جديدة ، فتألفت نواة جيش دائمة • وكانت الكتائب الشعبية تتركب من كثير من المتطوعين والمرتزقة من أندلسيين وزواويين وأتراك ومسلمين جدد وغيرهم •

وفى سنة ١٦٠٣ ، أى فى عهد المنصور السعدى ، بلغ جند المرتزقة خمسين ألفا • ومنهم كان يتكون بعض الاختصاصيين فى الرماية والهندسة العسكرية •

وأعظم جيش مهنى عرفه المغرب كان على عهد المولى اسماعيل • فقد جمع هذا السلطان منذ بداية عهده (١٦٧٢ ـ ١٧٢٧) جميع السودانيين الواردين على المغرب ابان الحملة السودانية التى وقعت عام ١٥٩١ • فكان يستخدمهم كجنود بعد أن يدربهم تدريبا جديا • فتألف من ذلك عسكر من السودانيين يبلغ أفراده ٧٥ ألف مقاتل وزعهم السلطان على حاميات المملكة • ومنذ ذلك أصبح معظم قواد الجيش يختارون من بين هذه النخبة •

وفى أوائل القرن العشرين كان الجيش المغربى منظما كما يلى :

على رأس الجيش وزير الحربية الذى يتصرف فى شئون الجيش ويأتى بعده القائد الاعلى (قائد المحلة) •

المشـــاة

يتألف هؤلاء المشاة من :

قائد الرحى ـ يمكن تشبيهه بضابط من رتبة كولونيل ـ يتولى قيادة طابور ويساعده خليفة (اليوتنان كولونيل) • ويتركب الطابور من خمسمائة رجل ، وينقسم الى خمس مئات (آلايات) •

قائد المئة ـ يمكن تشبيهه بضابط من رتبة قبطان ـ وكل مائة تنقسم الى

ثمانى كتائب فى كل واحدة اثنا عشر رجلا •
المقدمون يتولون قيادة الكتيبة •

الخيـــالة

قائد المشور هو الذى يتولى القيادة العليا للخيالة ثم يأتى بعده رؤساء السرايا (السرية الواحدة يتراوح عدد رجالها بين ٢٠٠ و ٦٠٠فارس)وتنقسم السرية الى كتائب •

الرماة (الطبجية)

يكون الرماة طوابير خصوصية يشرف عليها قواد الطبجية

تدريب الجيش

ولم تتردد الحكومة المغربية فى جلب بعثات عسكرية أجنبية لتدريب الجند وترقية سلاحهم • وهكذا كانت بفاس حوالى ١٩٠٧ مثلا :
بعثة ايطالية تتألف من كولونيل وضابطين مكلفين بتسـيير المعمل الملـكي للاسلحة ، ومصنع أعتدة الرماية •
بعثة فرنسية تتركب من قومندان وليوتنان مختص بالرماية وآخـر بالمشاة وطبيب عسكرى وضابطين •
بعثة انجليزية تحتوى على ماجورين وضابطين •

٣ ـ النظام القضائى

كانت ادارة العدلية بالمغرب دائما دقيقة •
فالملك هو مبدئيا القاضى الاعلى ، ولكنه ينيب عنه عمليا فى خطة القضاء قضاة يصدرون الاحكام باسمه تحت مراقبة وزير العدلية •

وجميع رعايا جلالة الملك خاضعون للمذهب السنى باستثناء اليهـود الذين يتمتعون دائما بفضل تسامح ملكى واسع ، بحق اسناد مهمة القضاء الى أحبار يحكمون حسب الشريعة الموسوية فيما يخص نظام الانكحة والمواريث ، واذا كان كل من المتداعين يهوديا •

القـــاضى

القاضى هو الحاكم العام فى جميع الشئون ، وهو الحكم الوحيد • وتمتـــد اختصاصاته الى جميع الميادين • ويمكن استئناف أحكامه أمام قاض آخر ، ثم أمام وزير العدلية •

ولكن بعض التحويرات أدخلت على مبدأ وحدة المحاكم لفائدة :

١ ـ الولاة الاقليميين من الباشوات والقـواد الذين لهم أن ينظـروا فى بعض القضايا الخـارجة عن نظـام الانـكحة والمواريث والملـكية ، كالمخالفات والجرائم •

٢ ـ محاكم قنصلية أحدثت بمقتضى اتفاقيات مبرمة بين المغـرب ودول أجنبية (نظام الامتيازات) وتنص هذه الاتفاقيات على أن الرعايا الاجانب غير المسلمين الذين يقيمون بالمغرب ، يخضعون الى قانونهم الوطنى ، ويتحكم فى شئونهم قناصل دولهم فيما يخص الخلافات الناجمة بينهم باستثناء الخـــلافات العقارية التى يرجع النظر فيها الى المحاكم المغربية•والقنصل المختص هو قنصل المدعى فى القضية • ولكن فى النزاعات القائمة بين المغـاربة والرعايا الاجانب تبقى المحاكم المغربية مختصة اذا كان المدعى مغربيا •

المخزن

الحكومة المغربية قبل الحماية الفرنسية